

دار عرب للنشر والتوزيع



روليت

مجموعة قصصية

شريف السقا

الطبعة الأولى

دار عرب للنشر والتوزيع

Info.dararab@gmail.com

٠١٠٣٦٥٥٧٤٤

تصحيح لغوي: أحمد منتصر

تصميم الغلاف : حازم عرفة

رقم الايداع :

الترقيم الدولي :

روليت

مجموعة قصصية

شريف السقا

جميع الحقوق محفوظة، وأي اقتباس أو نشر بأي نوع أو تقليد أو إعادة طبع، دون

موافقة كتابية من دار النشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية

الممكن أن تلحظ كقارىء وجود إيمان بيقين يحمل غايات كونية أصيلة ينبغي النضال إنسانياً وكتابياً لبلوغها.

مقدمة

المجموعة القصصية "روليت" لـ "شريف السقا" التي يسعدني تقديمها تحمل كل قصة منها رسالة مرتبطة بالرسائل الكامنة في القصص الأخرى.. رسالة تحرض على الاستجابة لما قد يكون صوت الخيال الطفولي بداخلنا، الذي يعيد خلق الحياة بحميمية الشغف وبرغبة استفهامية في التوحد مع حكمة ما يمكنها قيادة الروح نحو التحرر.

ممدوح رزق

تجسد هذه المجموعة القصصية رهانا على القيم اللا زمنية للحكي، على قدرة أنماطه التراثية المتعددة على التوظيف الإيحائي في مقارنة المتغيرات والتحويلات التاريخية للإنسان وللعالم .. تمثل أيضاً تعبيراً عن هاجس المزوجة بين السرد القصصي بانحيازاته الانتقائية المكثفة، المفتوحة عبر العلامات والإشارات الرمزية على امتدادات لا نهائية للتأويل، وبين الإمكانيات الناعمة للفضاء الحكائي المتسع لحرية القول والوصف والاستقرار النسبي للدلالة.. المزوجة التي في إنتاجها لجماليات نصية توفر إلهامات وتساؤلات متجددة عن ما يمكن أن يدعيه ماضي الانفصال الحاسم بين السرد والحكي من إثباتات ودلائل متراكمة تفرق بثقة بين طبيعتهما.

لدينا في هذه القصص القصيرة رغبة ملموسة في التمسك بمنجزات الذاكرة الجماعية وإعادة تفحص ما يمكن إدراكه من تجلياتها.. التأكيد على الإيمان بالحس البلاغي القديم وأشكاله التقليدية في تناول الوجود مع الانشغال العميق بتطويره.. رغم الوعي المنهك بالجرح الذاتي والأزمة الشخصية في العلاقة مع النفس ومع الآخر ومراقبة التفاصيل الكابوسية للواقع إلا أنك من

بعد مرور الوقت أيقنوا الثلاثة.. أنهم في المكان نفسه.. لا رابح ولا خاسر.. قد يكونوا تصالحوا.. يمرّ بندوق الوقت بطيئاً بسرعة صفر تقريباً..

صرخ شيطانه وغادر من ثقب صغير في الجدران.. صاح وهو يغادر أن جحيمي أفضل كثيراً من جحيمك.. بقي اثنان.. تمسك به ملاكه الحارس.. بعد وقت ليس بكثير.. استعدّ ملاكه للمغادرة.. تشبّث بجناحيه حتى لا يتركه.. دفعه بعيداً.. صائحاً.. ليس لمثلك أبداً جحيم..

كانت هذه آخر مرة يرى وجهه الذي غادر مودّعاً معهم..

وحيداً.. يلعب بمكعبات الصّمت طول الوقت.. بحث عن من يحدثه.. لم يجد سوى نفسه.. استغرقه وقت طويل حتى روض نفسه الجامحة التي كانت تركض بحرية بين ضلوعه.. أصبح يحدثها وتحديثه.. أصابهم الملل.. ونزلت ستارة الصّمت الثقيل بينهما.. لم يعد يأبه.. لم يعد يعبأ.. كل ذلك والظل الثقيل لا يزال قابعاً على الأرض يترقبه.. مطلاً عليه من نافذة روحه الضيقة.. النافذة ذات القضبان القديمة..

نظر إلى الأرض.. لم يجد الظل.. بحث عنه.. قبع في الركن منزوياً.. يضمّ رجليه إلى صدره ويحوطهما بسياج ذراعيه.. يخاف أن تتمردّ رجلاه عليه وتعدوا به إلى الباب الحديدي الصديء الذي يتوسط الغرفة..

بعد زمن طويل وصل إلى حدود الباب.. دفعه بحذر.. كان

العزلة

لا يعرف متى دخل هذا المكان.. كم من الوقت؟.. شهور.. سنين.. زمن بأكمله.. كل ما يتذكره دفعة الشبح الأسود له بداخلها.. يصرخ بلا مجيب.. جدران صماء.. تبلع صوت الصّراخ وتمضغ الصدى.. وصورة ظل الشبح الأسود القابع على الأرض لا تتغير.. لا تتبدل.. مرّ به زمن طويل.. أتى من العدم.. لا ذاكرة.. كشجرة اقتلعتها رياح عاتية وقذفت بها إلى هوة العدم السحيق..

لا ليل لا نهار.. لا وقت.. لا شيء..

لم يؤنس وحدته سوى شيطانه وملاكه الحارس.. يشبهان أحدهما الآخر.. قد يكونا توأمين.. وربما كانا يشبهانه هو أيضاً.. أتى الشيطان ليرتكب الخطيئة.. وأي خطيئة يرتكب وهو في هذه الشرنقة؟.. وكيف يرتكبها وظل الشبح يرقبه طول الوقت؟.. أما الملاك فقد جاء ليحميه من شيطانه.. ويشجّعه على فعل الخير.. أي خير قد يفعل هنا؟ والظل لا يزال يرقبه..

هم أيضاً يتذكرون.. إنه في الزمن البعيد.. عند اكتمال القمر.. كانت تجتاحهم ظلال الأشباح السوداء.. لتخط أفواههم.. بعد زمن نمت آذانهم حتى يسمعون الصوت الآتي من وراء تلال الخوف التي تحيط بمدينتهم.. يتذكرون أن من يفشل في سماع الصوت الآتي من وراء التلال.. كانت تزوره الظلال لتأخذه معها إلى وراء التلال.. أخذوا الكثيرين.. يسمعون أن أرواحهم لا تزال هائمة.. تجوب غابة الرعب خارج الأسوار..

ظل صوت الضجيج يرتفع بداخله.. يصم آذان قلبه.. صرخ بقوة ليسمعه.. ارتعدوا من وراء أبوابهم المغلقة.. ظنوا أن الصوت جاءهم ليسحبهم إلى ما وراء التلال..

انسحب إلى خارج الأسوار.. من نفس الطريق قفل عائداً.. هذه المرة شعر بطول الطريق.. مجهد.. انتهى به الطريق كما بدأ.. تراءت له من بعيد غرفته القديمة أعلى الجبل الصخري.. تسلق الصخور.. مخلفاً خيطاً رفيعاً من الدم.. وصل زاحفاً إلى الباب الحديدي.. خلع قميصه الملوّث بالدماء والعرق.. ورماه على الأرض.. رمى نفسه وراءه.. اختفى صوت الضجيج بداخله.. لا يتذكر إن كان أغلق جفنيه أم لا قبل أن يغرق في النوم.. لم يكن هناك صوت إلا صوت صرير الباب الحديدي الصدى عندما تضربه الرياح.. أما ظل الشبح الأسود فلم يره ثانية..

لا يزال خائفاً من الشبح الأسود صاحب الظل الثقيل على الأرض.. صرخ صرير الحديد.. ببطء.. واندفع ليصب في أذنيه.. أول صوت منذ أمد بعيد..

ضرب عينيه ضوء الشمس.. اغتصب أجفانه لينظر إلى الضوء.. تردّد طويلاً.. خائفاً.. مرتعداً.. همّ بالتراجع.. تراجع بالفعل يرتعش.. ينكمش.. تكوّر على نفسه..

حسم أمره وألقى بنفسه خارجاً..

رأى طريقاً ملتوياً كالأفعى.. بين التلال.. مكسواً بالحصى الملون.. مشى فيه.. لا يوجد طريق غيره.. على جانبي الطريق شجيرات الشوك النابتة في وادي العدم.. لا يعرف متى بدأ السير.. ولا المسافة التي قطعها ولا حتى الزمن..

تراءت له على مسافة بعيدة أشعة سراب مدينة تبهر في بحر النسيان..

وصل إلى أبواب المدينة.. الشمس تتنصف السماء.. رأى أناساً يملأون الطرقات.. آذانهم كبيرة.. استطالت حتى زحفت على الأرض.. لا يسمع صوتاً.. تعوي رياح الصمت في المدينة.. ويظهر صوت الضجيج داخله.. تفحص الوجوه.. لم يجد أفواهاً.. رفع صوته يكلمهم.. ارتفعت موجات الفزع في أعينهم.. وولوا الفرار.. أحسّ بالعيون ترقبه من وراء الجدران..

مكسواً بالذهب.. يحضرون الحسان من خارج الأسوار لترقص
بمجون في عيد الجنون المنعقد بأمر سحرة المدينة.. قادرًا على
الاشتفاء.. عاجزا عن الأداء.. قادرًا على الحب لكن أين الوفاء؟
الجميع ينظرون.. ينتظرون.. يصطفون.. في ساحة
الأصنام..

كسوا كل شيء إلا عينيه.. حتى عندما صرخ.. تردّد صوت
الصدى بينه وبين الحجر..

ذاب داخل كسائه.. تحلل داخل نفسه.. لم يشم إلا رائحته..
حتى يوم جاؤوا.. لينزعوا غطاء.. الذهب لم يستطع أن
يعترض.. أخذوا الذهب.. ليبنوا قصرًا لكبير السحرة على التل
الأسود المطل على مدينة السراب..

سرت الهمهمات بين الأصنام المصفوفة.. كريح تعصف
بأوراق الشجر الميت في خريف زائل.. صالصة العظام داخل
أكفانها الحجرية.. أيقظت سكان التل الأسود البعيد..

أتاه ساحر المدينة غاضبًا.. متوعدًا.. ماذا تريد؟.. أريد
الخروج.. أعطيناك الحياة الأبدية.. كسوناك حجرًا ثم زدناك
ذهبًا.. حتى أحضرنا لك أجمل جارية من خارج الأسوار
لترقص لك.. يا لك من ناكر للجميل.. تريد أن تعبث بقانون
المدينة؟.. تركهم وذهب ليشرب أنخاب الدم أعلى التل.. في
قصر الجمجمة.. المكتوب على جدرانه: سيذبح الموت بجناحيه
كل من يزعم الملك.. كان الملك الجالس على العرش المكسو

سفر الخروج

في مدينة السراب.. قالوا له سنجعلك تعيش أبدًا.. سنعطيك
كل شيء.. ستلبس الذهب.. وتعيش ملكًا أبدًا في مدينتنا.. هذا
ما نفعله لكل وليد في المدينة.. هي الحقيقة في السراب.. ذهب
فرحًا.. أخبره ساحر المدينة أنه لا بد أن يكسَى بالذهب..
بالحجر.. سيحمون جسده الوليد الذي يرتجف.. سيعيش إلى
الأبد.. أوتقوه بأوتار قلبه.. وغسلوه بماء أحضروه من نهر
الحزن الذي يشق المدينة.. كسوه حجرًا وزادوه ذهبًا.. وطافوا
به أرجاء السراب.. هكذا دائمًا يفعلون.. وضعوه بجانب إخوته
في الأرض الشاسعة.. زينوه.. كان سعيدًا.. سيعيش إلى الأبد..

هطل المطر.. لم يشم رائحته.. هبّت الرّياح لم تهز خصل
شعره.. دارت مقلته في محجريهما.. لا فائدة.. فقد تحول
حجرًا..

في المساء يحضرون الطعام لكل الأصنام.. جائعًا.. وهل
يأكل الحجر؟.. هكذا همس ساحر المدينة.. ما أنت إلا صنم..

همّ بمدّ يديه ليأكل.. لم يستطع.. ثقيلة وطأة الحجر حتى ولو

في الجحيم.. كان الملك لا يزال يلعب النرد وحده حتى لا يزعج الملك.

بالجلد الآدمي.. في لحده البديع.. يلعب النرد مع الموت.. ويتبادلان الأنخاب.. كل ذلك في حراسة الأفاعي الملكية.. اتفق الملك مع الموت على أن يحصد ما يشاء من أرواح الأصنام المرصوفة بانتظام في السّاحة.. في الليالي المظلمة كان يسمع صوت منجله الصدىء وهو يجتث الأصنام.. يضع الأرواح المحصودة في قارورته المعدنية ويرحل ممتطيًا جواده العظمي.. متسربلا بالسّواد.. ينجز عمله سريعًا ليعود ليلعب مع الملك..

لكنه توقف عن الحضور.. افتقده.. لم يعرف السبب.. عندما كان الملك والموت يلعبان النرد كعادتهما كل مساء.. تحدّث الموت كثيرًا حتى أزعج الملك.. في الصباح.. وجدوا على جدران عرش الجمجمة مكتوبًا.. سيذبح الملك بجناحيه كل من يزعج الملك..

تشقق الحجر.. واندفعت الأرواح المحبوسة منذ القدم.. واندفع معهم.. كانوا يبحثون عن أجسادهم التائهة.. جاس في أرجاء المدينة.. لم ير سوى أشلاء الأصنام المتناثرة في طرقات الصمت.. رأى صفا طويلا يمتد إلى الأفق البعيد بجوار نهر الحزن الذي يقسم المدينة.. انتظم في الصف.. عندما انتصف الزمن.. وجد مسخا جالسًا.. سأله: إلى أين نحن ذاهبون؟.. لم يجبه دسّ ورقة صفراء مطوية في يده.. التزم الصمت.. اتبع من قبله.. وجد بوابة حجرية.. عندما عبر البوابة.. فضّ ورقته المطوية.. كان مكتوبًا فيها: نرجوا أن تكونوا قضيتم وقتًا سعيدًا

وتخضّب قمصانهم المرفوعة.. بالخوف.. والرعب.. لهم ألف
ألف سبب.. فيا للعجب..

هكذا نعيش في مدينتنا.. والقاطنون فيها يعرفون.. قانون
مدينتنا.. وطرقات مدينتنا.. حتى رائحة مدينتنا..

سيقولون لك: نحن نطلب الثأر.. نحن نطلب الدم.. قدم بدم..
ورأس برأس.. وليست كل الرؤوس سواء.. وهاك القميص..
دليلنا.. ومرشدنا.. فنحن نطلب حقا بحق.. وليست كل الحقوق
سواء.. فلا تصدقهم فإن كل هذا هراء.. كلام يلمع من الخارج
وبداخله الخواء..

وانظر إلى بؤساء مدينتنا.. ومشرّدي مدينتنا.. وصعاليك
مدينتنا.. وإلى قمصانهم المرفوعة والمنقوعة والمصبوغة
بأحلامهم.. وآمالهم.. ثم اذهب إلى والي مدينتنا.. وعسس
مدينتنا.. وأثرياء مدينتنا.. وأتقياء مدينتنا.. واسألهم.. أي ثأر
تطلبون.. وأي دم تنشدون.. كيف تطلبون دم عثمان؟.. وقد
رأيت عثمان في طرقات المدينة يسعى..

فلن تسمع إجابة.. ألم أقل لك إن هذا قانون مدينتنا!

مدينتنا وقميص عثمان

في البداية قميص عثمان مثل لكلمة حق يراد بها باطل..
وأصلها أنه بعد مقتل الخليفة الثالث.. طالب فريق بالثأر لمقتله
على الرغم من أنهم كانوا أول المحرّضين على قتله.. ورفعوا
قميصه المخضّب بالدماء أمام الناس في سبيل ذلك.. وفي سبيل
مصلحتهم الخاصة وحدها.. فصار ذلك مضرباً للأمثال.. أما
مدينتنا فهي مدينتنا.. قد تكون رمزية.. أو تكون أصلية.. الحكم
لكم.. وحدكم..

القادم إلى مدينتنا.. من أي جهة.. سيرى ألف ألف قميص
مرفوع.. مخضّب بدم ألف ألف ضحية.. أصبح لكل من في
المدينة قميصه المرفوع.. يخضّبه مرة بالدم.. مرة بالألم.. ومرة
بالظلم.. ألف ألف سبب وسبب.. فيا للعجب.. حتى والي المدينة
والعسس لهم قمصانهم المرفوعة على أسوار مدينتنا.. بجوار
أعواد المشانق.. وهي مخضّبة.. بألف سبب وسبب.. مرة باسم
أهل مدينتنا البؤساء.. ومرة باسم تجار مدينتنا الأثرياء.. ومرة
باسم حمايتنا من الأعداء.. حتى رجال المعبد في مدينتنا يرفعون
قمصانهم أعلى معبدهم.. ويطوفون بها أرجاء مدينتنا..

أتذكر؟..

صدمتك الثالثة والرابعة وكل السلسلة.. يوم إبحارك نحو دلتاها.. ذلك الالتحام.. الالتهام.. تلك التأوهات والاهتزازات المتوالية.. يوم تبادلتما الارتعاش.. العرق البارد الناضح من ذلك الجسد ولازلت تذكر..

أتذكر؟

ذلك الفجر البعيد.. منتزعاً بأيدي الغريب.. معلقاً من قدميك ورأسك متدلياً لأسفل.. صارخاً.. غاضباً.. خائفاً من السقوط.. صدمتك الأولى..

ضحكة الغريب البلهاء المرسومة على وجهه متوجة نجاحه في مهمة الانتزاع.. هذه الأصوات الفرحة بانتزاعك وصراخك المتوالي.. تحددت المواقف في اللحظة الأولى.. غضب على ضفة وابتهاج على الضفة الأخرى..

ثدي الحنان الذي التقمته.. بعفوية.. يشهد انتزاعك الثاني.. دهشتك الثانية.. صدمتك الثانية.. حان الوقت ودقّ الجرس للالتحاق بصفوف القطيع.. أصبحت أذناً بلا لسان.. تخبو تلك الضحكة الصافية رويداً رويداً.. أتذكر؟.. العبث.. أقرانك.. الأشياء ذات الملامح الجميلة.. التي تساقطت على مرّ الزمن.. هذا التمرّد السافر الذي أطل برأسه معلناً صرخات الرفض..

الطعنات في الخاصرة والدم القاني المنفجر.. ضلعك الأعلى المغمس في ذلك السائل القرمزي اللزج.. الصفحات ناصعة البياض والكلمات المكتوبة بهذا السائل.. اصفرار الورق ووصوله لشيخوخته.. لون الكلمات الصدى.. الأحلام المصلوبة على جدار الألم.. والمنسية والأخرى المخفية في ثنايا الأمل..

هذا القلب السجين في قفصه العظمي إلى الأبد.. رهين القفص..

تلك الأحشاء المنسكبة من اللحم المهترى.. خطواتك للبحيرة المقدسة.. صورتك المترقصة على صفحة المياه الفضية.. الحجر الذي ألقيته بعنف على ذلك التراقص.. نظرتك إلى السماء ملوحتاً بقبضتك.. صارخاً.. دمدمة السماء وانصرافك مغمغماً..

التل البعيد حيث كنت جالساً.. تصاعد الحنق وغيلان مراحل الغضب بداخلك.. حتى استحلّت تنينا محلّقا.. تنفث نيران الغضب على المدينة الكرتونية وأصنام الجهات الأربع.. ترقب

تلك المدينة البائسة تحترق في اللهيب المستعر..

مستمعاً لصرخات البؤس في الطرقات العطنة وتلك الرائحة..

علي نفس التل دمعت عيناك.. تأمرت معك السماء
وأمرت.. ذلك الدخان الأسود من الركاب والأصنام الذائبة..
تكس المياه كل هذا العفن وتبقي تلك الرائحة..

داخل الغرفة

عاري القدمين تمشي مخترقاً تلك الشوارع الضيقة.. تعلق
بأنفك الرائحة.. تعلق بأذنك تلك الأصوات التائهة.. تعلق
ببصرك تلك المشاهد المؤلمة.. حتى تصل إلى تلك الدائرة
الرخامية البعيدة.. البرودة التي تجتاحك من أسفل إلى أعلى..
لنتجمّد نظراتك وتعلو وجهك تلك الزرقة الجليدية.. تتكسر..
أشلاء.. تتناثر.. محمولا على الرياح..

تلك الرمال الدافئة وهدير الأمواج المتلاطمة.. القرص
الذهبي.. هذا الهواء المنعش يضرب وجنتيك.. انبعاث العنقاء
من تحت الرماد وصراخها من بعيد معلنة بدء فصل جديد من
تاريخ العبث..

لا يهم فقد عدت من جديد طفلاً يلهو على شاطئ البحر
ناسياً تلك الرائحة..

دلف إلى غرفته.. أغلق الباب بعنف.. نزع ربطة عنقه
وقذفها على الأرض.. وجده يرمقه في صمت.. بادله النظرات
واقترب منه متسائلاً..

لم لا تتركني وحدي؟ أأرغب أن أكون وحدي.. اغرب عن
وجهي.. اذهب من هنا.. ولكنني لا أستطيع ذلك لقد رافقتك
طول عمرك منذ أن كنا صغاراً..

أنت تثير حنقي أتعرف ذلك؟.. تتواجد في غرفتي دائماً..
أراك منذ أن أستيظ وحتي أنام.. هذا شيء لا يطاق.. مثير
للأعصاب..

ردّ عليه بحنق: أنت جاحد للصداقة.. ناكراً لها.. إنك لا
تستطيع أن تعيش بدوني وأنا كذلك.. لست متواجداً هنا لأنني
أحبك.. هذا قدرتي.. لماذا لا يستطيع أفقك الضيق أن يستوعب
هذا؟..

الشرخ

صغيراً.. يمرح.. وجد خيطاً أسودَ على الجدار.. تحسّسه..
لم يكن سوى شرخ وليد.. خرج من رحم الحجر متسللاً..
لا مبالياً.. انصرف مستكملاً عبثه الطفولي النامي في فضاء
العالم.. عندما سقط في يوم ما.. ضمّد جرحه بلاصق طبي..
عندما عاد خيل له أن الجدار يصرخ من الألم.. ضمّده مثلما
ضمّد جرحه.. متمنياً أن يلتئم الشرخ وأن يتوقف ألم الجدار..
ازداد طولاً.. اكتست شجرة شبابه نضارة.. وشرخه يزداد
سواداً ويكبر..
أصدقاء عمر الآن.. يكبران بالتماثل.. بالتوازي.. يزدادان
خبرة واتساعاً.. قرباً وابتعاداً..
يتبادلان الأدوار.. يتبادلان الأسرار.. حتى أنهما في لحظات
الوحدة كانا يتبادلان الأنخاب..

نظر إليه شذراً.. اقترب منه.. كاد الصدام أن يكون حتمياً
بينهما.. انسحب مترجعاً.. جاذباً وتر التوتر إلى أشده..
جلس على الأرض مشعلاً سيجارة.. مثبتاً نظره إليه..
بعد لحظات انفلت زناد الغضب من عقاله.. مطلقاً منفضة
السيجارة نحوه..
يدوي صوت مريع في أرجاء المكان.. ويتناثر مَن كان
يحدثه في شظايا المرأة المحطمة.. ويخيم الصمت..

لوّح له مغادرًا.. متمنيًا..

غاب قمر الليل.. فغر الشرخ فاه.. وانسل سائلا.. هابطا..
متهاديًا.. مبتلعًا كل شيء.. اليوم أصبح سيد المكان..

الفراغ

ألقي بنفسه على السرير كعادته.. محققا في السقف.. محققا
في الفراغ..

نفث الدخان من صدره.. خرجت خطوط تتقاطع.. تتوازي..
تتجاذب وتتأفر.. تتداخل الدوائر وتتهادى.. لترسم صورة
هلامية داخل الفراغ..

تتشكل انعكاسات من انبعاثات صدره.. ظل محققا.. تراءت
له كائنات خرافية.. تركض.. تمرح.. تتعابث..

رأى كوابيسه المتوحشة.. تطارد أحلامه الوديعة.. شاهد
المطاردة.. تعجّب واندesh.. ابتسم.. عندما هربت الأحلام من
كوابيسها..

ظل الدخان.. يرسم له.. صورة غجرية تتراقص.. على
دفوف العشق.. وتتمايل على طبول الحس..

المشهد أصبح يجذبه.. اندمج في هذه الغابة الرمادية.. أصبح جزءاً منها..

توقف الدخان فتوقف الرسم.. ظل محققاً في الفراغ حتى رأى الفراغ يحرق به..

أطلق زفرة طويلة.. فخرج زفيره طائراً نارياً.. محلقاً..

أغمض عينيه المسهدتين حتى لا يرى الفراغ.. لكنه ظلّ يسمع ضحكات الفراغ الساخرة تتردّد في أذنيه.. لتذكره أنه لا يزال موجوداً..

فارس لا يموت

تجاوز الوقت منتصف الليل بقليل.. يتجول على صهوة جواده.. فهو هذه الليلة قائد سرية الحراسة.. المعركة منتظرة عند الفجر.. لا يستطيع أن يستريح حتى لو رغب.. جال بنظره في المعسكر الهادئ.. صعد على التل القريب.. رأى نيران معسكر الإنجليز.. همس في نفسه: غداً ستكون الفاصلة.. ربّت على رقبة جواده.. وعاد ليتفقد حدود المعسكر مرة أخرى.. لا يعرف كم مرّ من الوقت.. لكنه قليل.. هبّت رياح شرقية.. ارتفع دويّ الرصاص.. وصوت يهز الأركان.. خيانة.. خيانة.. انطلق بكل قوته إلى المقدمة ليرى أصحاب السترات الحمراء والعيون الزرقاء يعملون القتل في رفاقه.. اقتحم صفوفهم وثبت مع مَنْ ثبت.. يقتل كل من يقابله.. آخر شيء يتذكره.. كان صوت أزيز أعقبه انفجار.. أحسّ بأن جسده تمزق وتطاير أشلاء.. يسبح في نهر الألم بين الحياة والموت.. تهاوى على ظهر جواده الذي انطلق إلى قلب الصحراء لا يلوي على شيء..

في لحظات إفاقة كان لا يسمع سوى صوت السنابك تدق

الفاحم.. لم يرَ أجمل من هذه العيون استجمع قوته وسأل:

-من تكونين؟..

-هل نسيت حبيبتي؟ التي في قلب الصحراء انتظرتك؟..

عجز عن الإجابة.. ظن أنه قد جنّ.. أو سقط كتاب ذكرياته من رأسه..

-لماذا تأخرت؟ ألم تعلم أنني أنتظرك؟ أهذا هو العهد الذي بيننا؟..

-لا بأس سأذهب لأحضر الماء المقدس لأغسل جروحك..

من تكون؟.. هل هي الحورية التي وعدوه بها.. لكن هل الجنة صحراء؟ ظل يتساءل.. قطعت تفكيره نظرات ذئب.. ينظر إليه.. إنه هالك لا محالة.. لماذا لا يهجم؟..

-اهجم وخلصني من الألم.. ولتكن مشيئة الله....

جاء صوتها مجددًا:

-هل أفاق الفارس؟..

صرخ:

-الذئب.. الذئب..

سمع ضحكتها المججلة.. كانت أعذب ضحكة سمعها..

على صفحة الصحراء الرتيبة.. خرّ الحصان من التعب على الأرض وخرّ معه.. ظل راقداً بجوار الجواد النافق.. يعتصره الألم.. استسلم للألم وغاب عن الوعي مجددًا.. أفاق بعد فترة من الزمن كأنها دهر على أنفاس لاهثة قرب وجهه.. تجمّد الرعب في عينيه..

يا إلهي.. أكون نهايتي في بطون الذئاب؟..

مدّ يده ليجذب مسدسه.. لكن يده لم تطع الأمر.. ارتفع صوته مدويًا في الأفق.. تفرقت الذئاب المتجمعة حوله والتي تتناول العشاء من لحم حصانه..

خيل إليه أنه لمح شبحاً أسودً بجواره.. غاب من جديد.. عندما عاد إلى وعيه كان ممدداً في كهف.. لم يعرف أين هو.. في بطن ذئب أو في ظلمات قبر.. حتى جاء الصوت:

-انتظرتك طويلاً.. لم أكن أعلم متى تجيء.. لكنني كنت واثقة أنك قادم..

همّ بالكلام..

-لا تجهد نفسك.. كفاك عناء رحلتك..

قطرت له الماء بين شفثيه المنتفختين من العطش.. غاب ثانية..

في صباح اليوم التالي.. وجدها تمرّر أناملها في خصل شعره

-لا تخف إنه لن يأكلك.. هل يخاف الفارس من الذئب؟..

-أيتها المجنونة.. أعطني سلاحى لأقتله..

-لم تريد قتله؟.. لم يفعل لك شيئاً.. لقد أكل القطيع كله ليلة أمس بفضلك!

كله ليلة أمس بفضلك؟..

-بفضلي؟..

-أجل.. أكلوا حصانك..

خرج صوت الحنق من داخله..

-لذلك لابد من قتلهم جميعاً.. كيف يأكلون حصانى؟..

-كان نافقا على أية حال..

-لكنه حصانى..

بادلته حنق بحنق..

-وماذا أنت فاعل بجواد نافق؟.. هل كنت ستدفنه وتنقش اسمه على شاهد من رخام؟

التزم الصمت.. التفتت إليه:

-لا تخف فإنهم جيرانى.. يسكنون في الكهوف المجاورة..

إنها حقا مجنونة.. ليست حقيقة إنها ليست سوى خيالات الاحتضار.. سرعان ما تنتهي.. هكذا حدث نفسه..

اقتربت منه.. نزعت ملابسه لتكشف جروحه.. شعر بالماء البارد يمسح جسده.. نظر إليها لم ير أجمل منها من قبل.. انهمكت في العمل.. حتى انتهت..

-لماذا أنقذتني؟.. وأنت تعرفين أن ليس لجرحى شفاء..

-هل أترك حبيبى للموت.. بعد طول انتظاري؟..

-كفى عن هذا العبث.. من أنت.. من أين جئت.. أين أهلك.. ماذا تفعلين هنا في هذا القفر؟..

أمطرها بوابل من الأسئلة..

قبلت جبينه.. احتضنته.. توقف الألم.. وضعت رأسه على فخذها.. وأخذت تضع قطعاً صغيرة من اللحم في فمه..

-لابد أن تأكل.. حتى تستعيد قوتك..

-قلت لك: لا فائدة..

لمح الذئب منزوياً يرقبهما.. شعر بقشعريرة في جسده..

-ألا تخافين؟..

سترتي..

ردّت بصوت حان..

-لن أذهب وأتركك أبدًا..

-إنني أقتسم معهم طعامي.. وهم يحرسونني..

-عليك أن تذهبي.. عليك بالطاعة ألسن زوجتي؟

من المؤكد أنه يحلم أو أن شياطين الموت تعبت معه في لحظاته الأخيرة..

دفن نفسه في صدرها.. في قلبها.. قبلت جبينه.. لقد حان الوقت أيها الفارس النبيل أن ترتاح من عناء السفر..

هبت رياح الصحراء الباردة في الليل الساكن..

بعد أيام و شهور.. طرقت باب بيت في المدينة..

وضعت يدها تمسح جبينه المشتعل من الحمى.. شعر ببرودة شديدة تجتاح جسده.. صرخ: دفئني.. احتضنته.. يومها شرب من خمرها حتى ارتوى.. امتزجت روحاهما في قارورة عشق سرمدى حتى ارتجت.. في الصباح.. كان رأسه لا يزال على تل صدرها الدافئ.. أعاد السؤال..

-من تريدین؟

-سيدة الدار..

-من تكونین؟..

جاءتها.. أخرجت سيفه من بين طيات ملابسها.. شهقت الأم..

-أين ولدي؟.. هل مات؟

-أنا حبيبتيك.. عشيقتك ورفيقة دربك.. زوجتك.. هل نسيت؟

أجابتها بغضب:

-متى تزوجنا.. كيف تزوجنا؟

-كلا.. فارسي لم يمت!

-ألم يشهد الله.. وليل الصحراء.. والقمر الفضي المعلق في السماء علينا؟.. حتى الذئاب في الكهوف..

-أين هو؟

أجابته.

-إنه هنا..

-إذا مت.. أنت تعلمين أنني سأموت.. أريدك أن تذهبي إلى أمي في المدينة.. وتحملني إليها سيفي.. ستجدين العنوان في

تحسست جبينها وهي تبتسم..

أما هو فكان لا يزال مخرجًا بالدماء.. على صهوة جواده..
في طريقه إلى السماء..

أميرة الأمل

ظل الملك يلعب النرد وحده ناظرًا إلى الموت الذبيح
بجواره.. لا يسمع سوى فحيح أفاعيه الملكية الحارسة..
وأصوات مسوخته الشائثة تعبث خارج لحده البديع.. شعر
بالممل.. أسرج عربته الحربية المتهالكة التي تجرها المسوخ..
تقلد سيفه المكسور.. ورمحه المسحور.. ارتدى خوذته المثقوبة
ودرعه الخشبي متآكل الأطراف.. طفق ينهب الأرض نزولا من
قصر الجمجمة فوق النل الأسود خارج مدينة السراب.. يلهب
ظهور المسوخ بسياط النار.. عبر الأسوار.. شاهد أشلاء المدينة
الخالية من الأصنام.. يحب أن يتفقد أرض مملكته الممتدة من
وادي العدم إلى جبل الخراب.. على أطراف أرض المملكة..
حيث تقع دلنا الطهر.. كانت تغني وتستحم في بحيرة الأمل على
ضوء القمر.. ترش الماء وتعاث جنيات الماء.. لا يستطيع
الاقتراب أكثر من ذلك.. هنا تنتهي أرض مملكته.. رفع صوته
يكلمها.. خرج الصوت مرعبًا.. همست جنيات الماء في أذنها..
كيف تكلمين من كان في اللحد منسيًا؟

محتمياً في قصر الجمجمة.. يرتجف في لحده البديع.. طرقت
أبواب القصر.. حملت مصباح الحب.... فأضاء المكان.. دخل
إلى تابوته الحجري متحولاً إلى تراب.. لم يستيقظ قط بعدها..

قال لها: قد آن الأوان لنوحنا.. ونصبح أكبر مملكة..
تردد صوت ضحكاتهما في سماء ألمه.. سرى الغضب فيه..
هتف: سأجعلك ملكتي الأبدية.. سأسكنك لحدي البديع.. هناك في
قصر الجمجمة.. سأحضر لك أجمل أسمال بالية.. سيزين جديك
العظام وسنشرب أنخاب الدم سوياً كل يوم في شرفة اللحد
المظلة على بحيرة الغم حيث ينبع نهر الحزن.. سيكون مهرك
جثمان الموت الذبيح.. ستتزوجين ملكاً ليس كأبي ملك..

نظرت إليه.. ليس بين اليأس والأمل زواج.. هل يتزوج
النعيم من ملك الجحيم؟

غضب.. تنفس بعمق اللهيبي من حوله.. همست في أذنه
الأفعى الحارسة.. عليك بضمّ المملكة..

قذفها برمحه المسحور عبر النهر.. توقف الرمح في الهواء..
وسرعان ما ارتدّ ليصيب أحد مسوخي المسرحيين في عربته
المتهاكة.. اندفع الدم الأسود على الأرض العطنة.. سدّ الفزع
عظامه.. وتهذلت لفائفه... شغلت المسوخ بأكل المسخ القنيل..
وتمزيق لحمه المتناثر على الأرض.. جرى متعثراً في أكفانه..
يحوطه الفزع.. مدت يدها.. تمزق ستارة سماء الخوف
القريبة.. بزغ نور شاقق.. ملأ الأفق الأزرق.. عبرت النهر
بعربتها الذهبية.. تكسّر سد الحزن.. ففاض الأمل.. مشيت في
مدينة السراب.. تتادي.. حتى عادت الأرواح الغائبة.. ترقص
في شوارع المدينة.. اكتست أرض الخراب بالشجر.. ظل

انزلق بهدوء إلى هاوية الحمى السحيقة تلك اللحظات التي يتوقف فيها الزمن ويبدأ الإنسان في الدوران.. ينتصف الدائرة.. بين الحقيقة والوهم.. معلقا بين الحياة والموت.. ينظر إلى شاطئ الحياة من بعيد ويحدق في أعين الموت الجاحضة ذي الابتسامة الساخرة..

تذوب جدران ذكرياتك وتسبح إلى المجهول وتطفو على السطح كل نفاياتك..

شعر بيد حانية تربّت على رأسه وتخرق أناملها الدقيقة شعر رأسه.. هتف: أمي.. رفع يده لكنه رآها تمشي مبتعدة.. سخيفة تلك الحياة تعبت بعقولنا تخطف من أحبنا ولا تترك لنا سوى رائحتهم وأطيافهم تحوم حولنا بعبث..

نحن لم نكن لنصبح وإذا أصبحنا كنا كحطام هشيم في خريف زائل تتقاذفنا الظنون ونبحر في الأوهام عمراً.. ولا نجد من العبث فكاكاً..

انطلقت كل الأشباح في تلك الدار وملأته بالصخب.. رائحة خبز الصّباح.. وجلبة أبيه التي يثيرها عند قدومه وذهابه للحقل.. وضحكته المجلجلة وصوته الخشن.. ضبط الحياة فجأة بعد موات سنين.. تساقطت الرتابة وشاهد كل ما كان قبل سنوات.. تتابعت المشاهد وتوالى بسرعة مذهلة.. شاهد كل ما سقط منه على مرّ الأيام.. الابتسامات ولحظات الحزن.. كان يسمع أصواتها وخيل إليه أنه يستطيع أن يمد يده ويلمسها..

ليل الهالوس

استلقى على تلك الأريكة البالية مصطحباً كوباً من الشاي.. كان الخدر بدأ في السريان في جسمه بعد هذا العشاء الدسم.. أشعل سيجارة وامتنصّ الدخان بلذّة.. كان الهواء لا يزال يعربد خارج الدار والمطر لا يتوقف عن الهطول.. لا يقطع هذا الليل الجاثم بثقله على القرية سوى أصوات نباح تأتي متقطعة من بعيد..

شعر بالبرد جذب غطاءً قديماً قدم عمره.. ذلك الغطاء الذي لا يزال يشتم فيه رائحة أمه.. لقد ذهبت وذهب الجميع لكن رائحتهم في أشياءهم بقيت..

أغمض عينيه.. شعر ببرودة قارصة تقضم أطرافه... انكمش داخل نفسه حتى بدأ في الارتجاف.. اشتعل رأسه من الحمى.. وأصبح البرد والحرارة يتقاتلان لاحتلال أكبر مساحة في جسده.. لم يكن أمامه سوى الاستسلام..

اجتاحه الخوف.. وبدأ في سرد كل ما يتذكر من الكلمات
المقدسة لعلها تسكت عواء الشياطين المتصاعد لكن كان الوقت
قد فات.. فهو لا يزال أسيرًا لهلوس الليل والحمى..

ركضت الأحلام الجميلة ناثرة عطرها الأخاذ في الأنحاء حتى
كشرت كوابيسه القبيحة عن أنيابها وهمّت بالتهامها.. أصبح في
حالة سيولة لم يعرف لها مثيلاً.. يطفو في الفضاء.. غير معلق
بشيء..

من المرعب أن ترى تفاصيل حياتك تعرض أمامك وترغم
على مشاهدتها.. لكنك تعلم أنك لن تستطيع استعادتها.. فلا أحد
يمكنه أن يمسك خيوط الدخان..

صوت أبيه الأَجَش لا زال يرن.. لا تتحن يا بني فمن تعلم
الانحناء لن يستطيع أن يصلب قامته يوماً.. ربما لهذا اجتنبت تلك
العاهرة الملقبة بالحياة في ريعان شبابه فهي لا تحب من لا
ينحني..

رائحة الندى في الصَّبّاح.. أصوات السنابل الذهبية تتراقص
في الأفق.. اختلاسه لتلك النظرات للجسد البضّ ذي المنحنيات
الثائرة.. طعم تذوق الفاكهة المحرّمة أول مرة..

دقات الباب الخشبي في الصيف الحار وذلك الرجل ذو
السترة الصفراء وجداول العرق تنزّ منه ويستعصى على منديله
التقاط حباتها.. يومها أخرج الورقة الوردية التي تبشره بدخول
الجامعة.. صدحت الزغاريد في الأنحاء وابتنس ذلك الرجل في
بلاهة حتى ظهرت أسنانه الصفراء المتآكلة.. انصرف بعد أن
دسّ بعض النقود في جيبه. كان الجميع سعيدًا لكنه لم يكن
كذلك.. كيف يفرح لما لم يتمنّ أو يشته..

المصنع

تهادى ذلك الباص الحديدي المتهالك حتى توقف مصدرًا صوتًا بشعًا كأنه يحتضر.. تقاطرت منه الوجوه المكدودة ببطء كأنها شياة ذاهبة إلى الذبح.. مستسلمة.. طائعة.. عبر تلك البوابة الحديدية التي أكلها الصدأ حتى أتى على معظمها تمامًا كما أتى على ذلك القطيع البشري منذ أمد بعيد فحوّلهم إلى ظلال تمشي على الأرض تجرّج أقدامها نحو الهاوية.. عن يمين البوابة جلس الحارس العجوز مشعلًا نارًا ليستدفىء بها وينظر إلى الفراغ.. ذلك المصنع الذي اقتات على البؤساء امتصّ رحيق الحياة منهم ثم لفظهم ككومة عظام نخرة تعبث بها الرياح ولا تقوى على شيء..

لقد فقد تعاطفه معهم منذ زمن ليس بقصير.. لم يعد يسبغ شفقتة على أحد..

تذكر كل ذلك ثم تنهّد تنهيدة طويلة بأسى ثم انصرف ليكتب أسماءهم في كشفه ليعرف القائمون على المصنع الخرب من من العبيد أتى ومن امتنع عن الحضور..

ذلك المصنع الذي لا ينتج إلا القليل ويعلو ماكيناته الغبار والصدأ وتضفر في جنباته الرياح لتعلن موته القديم لكن الجميع يحضر كل صباح.. يتكدّس العمال في العنابر ليفترشوا الأرض.. يجلسون لشرب الشاي والتدخين ويتحدثون مثيرين جلبة في الأنحاء.. ومنهم من يمدّد جسده المنهك على الأرض وبنام بجوار الكائنات الحديدية الميتة التي كانت يومًا ما تتبض بالحياة..

لا يهم كل ذلك المهم أن يكتب أسماءهم كل صباح.. فالإدارة تشدّد على ذلك.. فهي السيد وكل سيد يجب أن يعرف عدد عبيده حتى يعاقب العاصي منهم..

كانت السماء حبلى بالمطر وتوارت شمس ذلك اليوم وعربدت الرياح في جنبات الجدران الهرمة لتبعث في النفوس ذلك الشعور بأن هناك شيئًا ما على وشك الحدوث قادمًا من الأفق..

انزوى بعيدًا يحتسي الشاي ممسكا بالكوب بكلتا يديه لعله يدفعه في هذا البرد.. نظراته تجوب المكان بلا مبالاة لما هو موجود حوله.. لقد اعتاد على رؤيته منذ سنوات..

بعد قليل مرقت عدة سيارات تتقدمهم سيارة سوداء والخاصة برئيس مجلس إدارة المصنع يجاوره فيها المدير واللذان لا نراهما إلا نادرًا أو في مطلع الأعياد وبعدها سيارة المأمور بلونها الأزرق الكالح يجاوره فيها شيخ الجامع العتيق وتذيلت

سمّها في أذان الناس..

كم كره هذه الوجوه اللامعة ذات الأحذية البرّاقة التي ينذر أن تراها أو ترى أصحابها في تلك النواحي البائسة.. تتضح وجوههم بموфор الصحة وينز منهم كل الحقارة البشرية..

تمّ سحب الثور ليتوسط الساحة.. وأخذ الجزار في التبختر حوله شاهراً شفرته الحادة وما هي إلا لحظات حتى شقّ حلق الحيوان فسقط صريعاً يتخبط في دمائه.. ودمه يشخب بغزارة على الأرض وسط تهليل البؤساء حوله.. تناول بعضهم طستاً متسخاً ليملاؤه بالدماء الطازجة ليغمسوا أيديهم فيها ويزينوا تلك الجدران المتهاكة بخمسة من أيديهم لتقي المكان من الحسد..

جاهد نفسه لكبت رغبته المتنامية في سبّهم أجمعين.. أيّ حسد سيصيب هذا الخراب؟.. اندفع بعض العمال ليرفعوا الذبيحة ليعلقوها مع الجزار أو ربما رغبوا أن تلمس أيديهم ذلك القربان المقدس.. علق الحيوان الذي كان ينبض بالحياة منذ قليل وقام الجزار يستعرض مهارته مرة أخرى ليشق الذبيحة لتندلق أحشاؤها خارجاً..

انفجرت السماء الحبلى بالمطر لينهمر بغزارة كأن السماء تعلن رفضها لتلك الذبيحة.. هُيَّء إليه أن السماء تمطر دماً.. تساقط الماء على الدم المتخثر على الأرض.. ليصبح خليط الدم والوحل هو السائد..

الركب سيارة نصف نقل تحمل ثوراً ذا لون أسود غطيس كلون الأيام..

ترجل الركب وهبّ العمال ليروا القادمين بشغف.. ففي تلك البقعة من البلاد قلما يحدث شيء.. فكل الأيام تنتشابه ويكون لها نفس الطعم..

تقدّم شيخ الجامع العتيق ليخطب في الجمع المحتشد والذي ينظر ببلاهة وبعيون نصف مفتوحة لما سوف يجري في تلك الساحة الجذباء..

افتتح الشيخ كلامه بالبسملة وأخذ يرغي ويزيد كعادته يمتدح رئيس مجلس الإدارة والسيد المدير وأعقب ذلك برفع يديه المعروقتين إلى السماء في رياء زائف شعر أنه اشتم رائحته النتنة.. كان يشكر السماء على إظهار براءة الرجلين من دنس تهمة الفساد وسرقة معدات المصنع الخرب تحت جناح الليل البهيم.. واندلق كلام كثير من شذقيه حتى يرضي سادته في خضمّ ذلك هبط غراب على السطح ناعقاً ليتوتر الشيخ ويظهر ضيقه على وجهه المتجعد ليهتف في الناس: ارجموا هذا الفاسق فإنه نذير شؤم وخراب.. اندفع البلهاء في قذف الطائر بالحجارة ليطير ليس ببعيد لينعق مرة أخرى متحدياً.. يستكمل الشيخ كلامه تحت ضغط الضيق وختم كلامه بتحية خاصة لذلك الوحش مرتدي الملابس العسكرية لسهره على حماية الناس والممتلكات.. ودّ لو بصق عليهم كلهم.. كان الأمر لا يطاق وكلمات النفاق سعت كثعابين سامة تلتفّ حول الرقاب نافثة

اختفى القادمون كما جاؤوا ما عدا شيخ الجامع وقف منتظراً
نصيبه من اللحم الطازج بنفاد صبر واضح..

بدأ التقطيع وسط صياح الناس وتهليلهم..

تبّاً لهذا البؤس إنه يمتطي ظهور الناس جادلاً سوط الفقر
ليلهب به ظهورهم بلا هوادة.. يجبرهم على الانحناء حتى
يصبحوا أقواساً.. يجروّن أقدامهم وجباههم تحفّ في الأرض..

كم هي قبيحة تلك الحياة... عجوز شمطاء لا ترحم.. تستمتع
بصرخات البؤس وتتنشي بألم الناس وترقص على أنقاض
أحلامهم.. حتى إذا ارتوت سلمتهم إلى الموت ليبتلعهم ضاحكا..

قارب النهار على الاحتضار وتفرّق الجمع يحملون لفافات
اللحم.. خارجين من البوابة.. ليعتقلهم مرة أخرى ذلك الباص
الحديدي ليعيدهم من حيث أتوا.. جلس محتضنا لفافته التي تقطر
لزوجة على يديه.. ارتسمت على وجهه شبه ابتسامة.. وأخذ
الباص يترنح بصفافة عائداً به إلى أول الطريق الأسفلتي الذي
يؤدي به إلى قريته البائسة..

عودة

استلم الطريق عائداً.. سالكا تلك الأزقة الأفغانية مرة
أخرى.. ظلت السماء تذبج قطعان الغمام الأسود لتتنزف ماءها
بغزارة على الأنحاء.. وسيط البرق تجلد الأرض بلا هوادة..
دويّ الرعد أجبر الجميع على الانسحاب إلى جحورهم... حتى
الكلاب وجردان الحقول.. انسحب الجميع تاركين الريح
العاصفة تعربد بلا اكتراث..

جرجر ساقيه في برك الوحل التي احتلت الطريق.. خاف
على لفافة اللحم الملتصقة بلزوجة على كفه.. لم يجد مفراً سوى
أن ينزع كوفيته الصوفية ليحميها بها.. تاركا الريح الباردة
تصفع عنقه بقسوة..

وصل إلى باب الدار.. مبتلا.. يقطر الماء منه كعصفور بلله
المطر.. أصدر الباب العتيق صريره المعتاد.. بعد لحظات كان
في صحن المنزل.. تلك الدار التي بنيت في الزمن الغابر على
عادة أهل الريف.. كلما احتاجوا غرفة جديدة بنوها وألحقوها

تمدد منتظراً.. وجال بنظره في تلك الدار الفسيحة الموحشة التي طليت جدرانها بكآبة الأيام كالحة اللون وطفحت برائحة الرتابة الباردة على مرّ السنين.. تلك الدار التي غادرها أهلها وتركوه وحيداً.. تذكر يوم أن غادروا ضفة الحياة في صحبة قافلة الموت يومها جثا على ركبتيه مناشداً إياه أن يصحبه معهم.. لكن الموت ضحك ضحكته الماكرة وأشاح بوجهه عنه ومضى بغنائمه بعيداً.. لم يجف نهر الدموع لكن القلب تناثر أشلاء..

كادت أن تطبق جدران الأسى عليه وتعتصره كعادتها... فطرت دمة ملتهبة من عينيه.. اللعنة على تلك الذكريات فهي تختبئ في الأركان حتى إذا شعرت أنك نسيت انقضت عليك ناشبة أنيابها الحادة في لحمك مخلفة ندوباً لا تتدمل..

حسده أهل القرية على تلك الدار.. هؤلاء الأوغاد الملاحين تهمهم تلك الجدران البالية أكثر من الذي يسير على قدمين.. يدعون الرحمة لكن قلوبهم قد قذت من صخر صلد.... يقتاتون بعضاً متقاتلين على الفتات الملقى لهم على قارعة الطريق.. ودّ لو أنه هتف بهم.. نحن لا نرث الأرض لكن تلك اللعينة هي التي ترثنا.. تلفظنا الحياة لتلوكنا ببطء بين فكيها حتى إذا انتهت منا بصقتنا بكل صفاقة..

كم هو ثقيل أن تحمل من أحببت لتقدم لحمم كوجبة شهية لديدان الأرض.. تعاملك الحياة كعاهرة تستلقي حاسرة ثوبها حتى إذا اشتعلت جذوتك وهممت بأن تعاليها ركلتك بقسوة

بالبناء.. ليصبح كتلة مضحكة مليئة بالنوافذ والأبواب تمامًا كقطعة الجبن المليئة بالثقوب.. وبعد أن جاء الغرباء كما يسميهم أهل القرية أصبحت كل دور القرية ظاهراً بؤسها بشكل لافت..

وضع لفافة اللحم على الطاولة الخشبية الجانبية وكأنه يتخلص من حمل ثقيل أرهقه.. خلع تلك الملابس المبتلة والمكسوة ببقع الوحل وارتدى جلباباً نظيفاً.. مشعلاً سيجارة وأخذ يتمتم بلحن أغنية قديمة.. سيلزم البيت في الأيام القادمة.. الجميع في إجازة.. ربما رغب الأوغاد أن ينزحوا ما تبقى من معدات صدئة في ذلك المصنع الخرب.. سحقاً للجميع ولتلك الحياة البائسة.. تعود جردان الحقول ممثلة البطون إلى جحورها وننتظر نحن قطعة لحم تلقى إلينا كالكلاب الضالة من حين لآخر..

لم يعد يهم أي شيء الآن.. شحذ سكينه وأخذ يقطع اللحم قطعاً.. اجتذبه نباح منقطع يأتي من بعيد كأنما يذكره بأن الكلاب أيضاً لها نصيب فيما أخذ..

تمدد الليل مبتلعاً القرية في جوفه.. لتغرق في الظلام كما هي غارقة في بؤسها منذ أن لفظتها الأرض على سطحها.. لا يחדس ستارة الظلام سوى بضعة أنوار مرتعشة من هنا أو هناك..

ألقي بقطع اللحم في الإناء.. ممناً نفسه بعشاء.. يملأ تلك الأوردة الجافة بقليل من الحيوية المفقودة..

لتنزف ألمك وتمضغ خجلك وحيداً وتنصرف ضاحكة بشيق
لتوقع بضحايا آخرين..

لا يتبقى لك إلا أن تنتظر إلى نفسك عبر شرخ قلبك المهدم..
قطع صوت تلك الأفكار المؤلمة صوت اهتزاز الإناء.. قام
سريعاً لينفذ عشاءه..

الرحلة

لحظة الاستيقاظ التي تتشابه في كينونتها مع لحظة الميلاد
المتكرر يومياً.. استيقظ في صباح هذا اليوم البارد.. ارتدى
ملابسه المتهترئة التي لا يذكر من أين ومنذ متى اشتراها؟.. كل
ما يعرفه أنها أصبحت زيه الرسمي الذي كاد أن يلتصق بجلده
من طول الزمن..

أطلّ خارج هذا المنزل البائس دافعاً نفسه إلى تلك الأزقة
الأفعوانية الضيقة التي تخترق بدهاء جسد القرية الغارقة في
فقرها المقيم.. تلك الأزقة الطينية التي شهدت حياته كلها..
طفولته.. شبابه.. حتى الآن.. القرية التي تمضغ سكانها وتعود
فتبصقهم في الطرقات إلى أجل معلوم..

سار بين تلك الجدران الكالحة ألوانها.. أحكم وضع كوفيته
الصوفية حول عنقه لتقيه من هذا البرد اللاسع الذي يخترق
جلده.. ثم تحسّس شاربته الكث وذقنه غير الحليقة.. وامتدت يده
لعلبة سجائره المحلية.. ليشعل سيجارة.. يمسّها برويّة..

بين هذه الجدران الرطبة محاولة الهرب إلى الأبد من هذا المكان..

كادت رحلته اليومية تشرف على نهايتها فقد وصل إلى أول الطريق الأسفلتي.. دقّ الأرض عدة مرات بقدمه ليتخلص من روث البهائم الذي تعلق بحدائه أو ما كان يطلق عليه حذاء في يوم من الأيام وكأن الرّوث هو الآخر يرغب في مغادرة هذا المكان.. عبر الطريق.. منتظراً.. أشعل سيجارته الثانية.. وقف يشاهد تلك السيارات المندفعة بأقصى سرعتها وكأنها تهرب من قدر محتوم يطاردها.. بعد فترة وجيزة لمح الباص الحديدي قادماً يترنح تحت وطأة الزمن والحمولة.. زمّ شفّتيه ثم اندلقت منه ضحكة ساخرة بطعم المرار.. توقف هذا الكائن الحديدي الصدىء أمامه.. صعد متكاسلاً ملقياً تحية الصّباح على تلك الأوجه المكدودة.. التقمه كرسي حديدي مغطى بقطع جلدية ممزقة.. تحرك الكائن من جديد وصوته البشع يمزق سكون المكان..

أراح رأسه على النافذة.. وترك عيونه تركض خلال هذا الزجاج المتسخ لترى وحشاً أسطورياً يبتلع مزيداً من الحقول الغضة ليتقيأ مزيداً من تلك المباني القميئة..

أغمض عينيه وأسلم نفسه لرحلته اليومية إلى مصنع البلاستيك..

لتضيف اصفراراً متزايداً على هذا الشارب.. يفرج عن دخان صدره في الهواء المشبع برائحة الحقول والقمام والخمائر والروث..

في الحقول المجاورة يرى هيئات بشرية كأنها نبتت في الحقول منذ أمد بعيد.. همس في نفسه.. هؤلاء البؤساء الذين يكّدون منذ الصباح الباكر حتى الظلام.. ليحرثوا.. ويزرعوا ثم يحصدون ليحصدهم الآخرين بعد ذلك.. يا للسخرية.. منكسو الرؤوس كأن طائر الموت يحلق حول هاماتهم ليعود ليخطف كل من رفع رأسه منهم.. يا للبؤس..

استعاد نفسه.. ثم رفع يده ملوّحاً ملقياً بسلامه.. جاء رد السلام سريعاً متكسراً مع نسمة الصباح البارد...

لم يعد يعرف كيف تغيّرت معظم الأشياء حوله.. أصبحت بلاستيكية الملمس والرائحة.. حتى رائحة الحقول فقدت الكثير في خوضها معركتها الخاسرة أمام المباني الممسوخة التي تتكاثر كنبت شيطاني في الأفق لتزيد الاختناق اختناقاً وتحكم الحصار حوله حتى لا يستطيع منها فكاكاً..

رسم على وجهه تلك الابتسامة البلهاء الممزوجة بمرارة السخرية.. في تلك الأزقة وجد نفسه وفي تلك الأزقة ولت الفرار وأخفق أن يستعيدها حتى قرّر أن يتركها إلى حال سبيلها.. على الأقل فإنها نجحت في الفكك من هذا الشرك الذي يتربّص بالناس هنا.. وإن كان يراوده الشك أنها لا زالت تجوس

-لا تقلق كل شيء سيكون على ما يرام.

-على أية حال إنه من بلادك.. لا تنسَ ربطة العنق..

كازابلانكا

جلس في نهاية الأسبوع كعادته في البيانو بار الكائن في الطابق الرابع عشر في الفندق الشهير بوسط المدينة البيضاء.. يتناول مشروبه المفضل المكون من الفودكا وعصير البرتقال.. يستمع إلى غناء المغنية الإسبانية الحاملة..

معظم العاملين يعرفونه هناك يذهب كل نهاية أسبوع له طاولة مخصصة.. يحب هذا المكان.. بعيداً عن صخب المدينة والموسيقى الصاخبة.. قطع استمتاعه رنين هاتفه.. نظر إلى الرقم.. وجده الرقم الخاص بالمدير الإقليمي في جنيف.. ليست عادته أن يتصل به في نهاية الأسبوع.. لابد أن الأمر مهم.. وجده يقول له إن هناك شخصية هامة ستصل المدينة أول الأسبوع.. وعليه أن يستقبلها ويسهل زيارتها.. ثم استطرد:

-الأمر في غاية الأهمية.. سأرسل لك ملفاً كاملاً عن الشخصية بالبريد الإلكتروني.

كان الأمر حتى الآن معتاداً.. فهو يستقبل الكثير ويودّع الكثير.. لا يهم.. لم يعرّ الأمر اهتماماً.. بعد أن أنهى سهرته.. وذهب إلى المنزل.. فتح الملف الوارد له على بريده الإلكتروني.. وجد اسماً قرأه بضع مرات في الصحف.. أحد الديناصورات المالية.. فروع شركاته تغطي الشرق الأوسط وجزءاً من أوروبا.. مرفق بالملف صورته.. وأرقام تقريبية لأعماله المالية.. في مصر والخارج..

في مساء اليوم التالي كان يقود سيارته الفرنسية السوداء ينهب الطريق متجهاً إلى المطار.. دقائق وكان في صالة الانتظار.. بعد عدة اتصالات داخل الصالة كان الضيف القادم خارجاً.. رجل سبعيني العمر.. يرتدي معطفاً طويلاً.. بذلة رسمية.. شارب على طريقة كلارك جيبيل الشهيرة مع نظارة سوداء بالرغم من حلول المساء.. كان يشبه رجال العصابات في الثلاثينيات.. رحّب به.. في طريق العودة إلى المدينة.. صرح صوت كروان.. وجده يتمتم بجانبه.. بأدعية كثيرة.. سرعان ما وصلوا إلى الفندق..

-سأمرّ عليك بعد ساعة حتى نتناول العشاء سوياً..

-سأكون جاهزاً.. أنا سعيد بمعرفتك..

-هل أنت بخير؟

-أشعر بتعب شديد.. سأرتاح اليوم.

-إن كنت تشعر بتعب.. أستطيع أن أحضر لك طبيبًا.

-لا لا.. سأرتاح فقط.. أراك بالليل..

كما تشاء.

في ليل المدينة الساحرة مرّ به.. استقبله مدير الاستقبال
بالفندق وانتحى به جانبًا:

-سيدي نحن نعرفك ونعرف شركتك لكن هذا ليس مبررًا أن
يستقبل ضيفكم عاهرة في الجناح المخصص له.. هذا يضعنا
تحت طائلة القانون كما تعرف.

-أنت مخطيء.. لا يمكن أن يحدث ذلك.

-سيدي أنا أعرف كل ما يجري هنا.

دسّ في جيب المدير بعض الأوراق المالية.

-سيدي لا داعي لذلك.. نحن في خدمتكم.. وسار مبتعدًا.

شعر بالدهشة الممزوجة بالاشمئزاز..

عندما رآه.. كان ينظر له بشكل مختلف.. يعرف لحظات
الضعف الإنساني:

ردّ بابتسامة أوماً برأسه مغادرًا.

وقت العشاء في المطعم المستلقي في أحضان الأطلسي..
تتاولا العشاء على أنغام الموسيقى الشرقية والرقص..

في وسط العشاء أحسّ به يرقبه.. يتفحصه بعناية.. لاحظ
نهمه للطعام..

سأله:

-هل تشرب؟

-كلا.. في بعض المناسبات فقط.

-هذا جيد!

-لكن هل تصلي بانتظام؟

-كلا لا أصلي بانتظام.

-يجب عليك.. استرسل في الكلام.. أنت شاب ما أقصى
شيء يمكن أن تفعله؟ تشرب.. تضاجع امرأة.. إن الحسنات
يذهبن السيئات!..

لم يهضم هذا المنطق على الإطلاق.

ودّعه على باب الفندق على وعد بلقاء في الغد.

انتصف نهار اليوم.. اتصل به.. جاءه صوته متعبًا..

-هل تعلم أنني عملت في كثير من الدول حتى كونت ثروتي؟.. كنت أعمل في إحدى الدول.. أفاض مسترسلا.. كنت أحضر السهرات لكبار رجال الجيش هناك في بيتي.. خروف مشوي.. أفخر زجاجات الويسكي.. ونساء.. وأترك لهم المنزل.. في الصباح كنت أوقع العقود.. هكذا يتم الأمر يا عزيزي..

رنت ضحكته البذيئة في المكان..

شعر برغبة حادة في التقى.. قطع رغبته رنين الهاتف يعلمه بسعر الجناح في لندن.. عندما أعلمه به.. ثار:

-لا هذا مبالغ فيه.. حاول أن تحصل لي على سعر أفضل أو فلتبلغهم بعدم حضوري هذا استغلال تام.. نعم.. نعم لن أحضر أبلغهم بهذا.. في الصباح اتصل به مجدداً..

-ماذا فعلت؟

-قدمت لهم اعتذارك.. أبلغتهم أنك لن تحضر.

-هل ذكرت لهم السبب؟

-بالطبع قلت لهم إن الأسعار غالية وإن هذا هو السبب..

-بصوت مخنوق.. حسنا..

..لم ير شخصاً أكثر ازدواجية منه.. يطلب منه الصلاة ويصطحب عاهرة إلى جناحه.. يريد الذهاب إلى المؤتمر الدولي

-هل استرحت؟

-أجل لابد أنه تعب وعناء السفر.. أريد أن أشاهد المدينة.. قالوا لي إنك تعرفها عن ظهر قلب..

-نعم أعرفها جيداً.. هيا بنا..

انطلقا مجدداً.. لم يكف عن الكلام.. لم يكف هاتقه عن الرنين..

-أريد أن أحجز جناحاً في لندن.. هل تستطيع أن تفعل ذلك من أجلي.. سأحضر مؤتمر التنمية الدولية هناك.. أنت أيضاً مدعو أليس كذلك؟

-نعم.. لكنني ربما لن أستطيع الحضور.. لكنني سأحضر لك الحجز صباحاً..

أخذت تتردد الأسئلة بداخله.. كيف حقق شخص كهذا كل هذا؟.. لا ذكاء.. لا ينم عن ثقافة أو شيء غير عادي.. لا شيء على الإطلاق..

في نهاية الليل.. جلسا يتجاذبان الحديث في البهو الرخامي بالفندق..

-عندك دعوة مفتوحة في أي وقت لقضاء عطلتك في منتجعي على شاطئ البحر الأحمر وقتما شئت..

-شكراً لك..

ويضغط عليه ليحصل على أفضل سعر كأنه يمتلك الفندق في لندن.. جلس يضحك بداخله.

....

في طريقهم إلى المطار ذلك اليوم... اندفع متحدثًا:

-هل تعرف أن الأمور انقلبت رأسًا على عقب.. لقد حدثني الوزير وسفيرنا ومسئول المنظمة الدولية مستائين من عدم حضوري.

كان يريد الحفاظ على هالته غير ممسوسة.

اصطنع هو الدهشة.. كان يعرف أنه يكذب.

دخل إلى الصالة الداخلية.. لوح له مودعًا.. صائحًا:

-سأنتظر في الوطن..

ثم اختفى في وسط المسافرين..

لم يلبّ دعوته قط.. لم يحب قط القوادين..

روليت

أشياء كثيرة وأحداث يطويها الإنسان ويضعها في صندوق مغلق ويلقي به إلى أبعد نقطة مظلمة داخل عقله.. ويسدل عليه ستارًا حديدًا.. ولا يتذكره.. لكن ذلك لا يمنع أن يطفو هذا الحدث على السطح.. كقطعة خشب طافية فوق محيط لا متناهٍ.. وكما تظهر تختفي من جديد..

.....

كان لم يتم عامه الثامن عشر بعد.. يكره القاهرة صباحًا ويعشقها ليلاً.. لأنه كائن ليلي.. يعشق السهر..

رنّ الهاتف رفع السماعة.. أجابه صوت صديق ابن عمه.. ماذا تفعل؟.. لا شيء.. هل ترغب في الخروج؟.. مؤكد.. سأمرّ عليك بعد ربع ساعة.. ارتدى ملابسه على عجل.. وانتظر أمام باب الحديقة.. بعد دقائق كانت السيارة تخرق شوارع المعادي

مهملة منسية من زمن غابر..

على طاولة تقع في وسط المكان.. لا تتناسب مع أثاث المكان.. تحلق الثلاثة الموجودون أصلاً داخل الشقة حول الطاولة.. جلس هو وصديقه على كنبه مقابلة..

لاحظ أن الطاولة فارغة إلا من بعض زجاجات البيرة وعلب التبغ الأجنبية وصندوق أبيض قديم.. نظر إليه أحدهم شاب تجاوز الثلاثين من العمر ذو عيون باردة ميتة.. لم يسترح له... ربما كان الشعور متبادلاً بينهما.. خاطب صديقه:

-صديقك؟

-نعم..

-هل سنلعب؟

-لا أعتقد ذلك.. سنشاهد فقط..

أخرج الشاب ذو العيون الميتة مسدساً فضياً من الصندوق.. نظر إليه مرة أخرى وسأله:

-هل تعرف ما هذا؟..

لم تعجبه نبرة الصوت.. استفزته.. وضع زجاجة البيرة بدون اكتراث بجانبه.. وأجابه:

-مسدس ساقية كولت أمريكي..

الهادئة.. الوقت تجاوز منتصف الليل بقليل.. الجو منعش.. ملأ صدره برائحة مسك الليل والياسمين الهندي المتصاعدة في الأجواء.. كان الليل ساحراً يومها..

سأله:

-إلى أين نذهب؟

-سنذهب إلى بعض الأصدقاء في منزلهم.

-لا أرغب في الذهاب إلى منزل..

ضحك..

-لا تقلق سنحتسي قليلاً من البيرة ثم نعاود الانطلاق..

-ماذا يفعل أصدقاؤك في المنزل في هذا الجو الساحر؟

-إنهم يلعبون الروليت..

-روليت؟ أنا لا أحب القمار..

-إنه ليس الروليت الذي تعرفه إنه مختلف.. استرخ أنا أيضاً لا أشارك في اللعب..

ركن السيارة أمام عمارة في الحي الأرستقراطي العريق.. وصعدا في المصعد.. ضغط على الزرّ الخاص بالطابق الثالث.. بعد دقائق كان يرق جرس الباب.. فتح شاب في العشرينيات من العمر.. رحّب بهما.. دخلا إلى الشقة.. شقة تشي بأرستقراطية

-لا تهتم..

لكنه بادره:

-لست خائفا ومعى نقود كثيرة.. لكنني أخاف أن تخسر أنت نقودك..

-إذن فلنلعب..

صاح صديقه:

-لا!

وضع يده في جيبه وأخرج نقوده ووضعها على الطاولة بسخرية..

-إذن فلنلعب..

لا يعرف ماذا دهاه.. تجمّدت نظرات صديقه..

ناولته الشاب المسدس بعد أن لفّ الساقية عدة مرات..

أخذه منه.. قبض بيده على المقبض العاجي.. وسط زهول الحاضرين.. أغلق عينيه.. وضع الفوهة على صدغه الأيمن.. كان قد جن تماماً.. لامس الفولاذ البارد جلده.. توقف الزمن.. توقف التفكير.. توقف الصوت.. ضغط برفق على الزناد.. لحظة استغرقت دهرًا.. رنّ صوت المعدن في كيانه.. لم يحدث شيء على الإطلاق.. فتح عينيه.. رأى صديقه مشدوهاً.. كان

ثم أضاف بابتسامة:

-لكنه طراز قديم..

نظروا إليه ولم يتكلم أحد.

أخرج كل شاب منهم نقودًا ووضعها على الطاولة.. تناول ذو العيون الميتة المسدس ووضع رصاصة في إحدى حجرات ساقية المسدس ولفها بسرعة وبدعم اكتراث.. كان لا يزال ينظر إليه.. يا إلهي إنهم يلعبون الروليت الروسي.. لعبة الموت.. قفزت إلى ذهنه مشاهد فيلم صائد الغزلان.. إلا أنها اليوم حقيقة.. إنهم مجانيين تمامًا..

بدأ الشاب لعبته المميتة.. لم تتطلق الرصاصة.. ضحك عاليًا..

همس صديقه:

-هيا بنا..

استعد للقيام..

بادره صاحب العيون الميتة..

-هل تخاف أن تلعب أم ليست معك نقود؟

وأطلق ضحكته المستفزة مجددًا..

همس له صديقه:

درج الذكريات

للكل حياة سرية يحفظها في درج ذاكرته.. ليست بالضرورة سيئة.. ليست بالضرورة جيدة.. إنها تجارب.. تحفر وتحت شخصيته.. لكنها تظل بداخله جزءاً منه أو ربما يكون هو جزءاً منها..

استيقظ كعادته كل صباح.. سلم نفسه لزخات المياه الساخنة مستمتعاً.. ارتدى ملابسه ثم شرب قهوته الصباحية.. ليس من عادته الإفطار أو حلقة ذقنه في الصباح.. روتين يومي.. طقوسه الصباحية لا يغيرها.. بعد دقائق كان في سيارته.. في جو الإسكندرية الشتائي العاصف.. يوم ماطر جميل.. لا يعرف لماذا يحب هذا الجو.. خرج من الحي الراقي الذي يسكنه إلى طريق الكورنيش.. السيارات تسير على مهل بسبب المطر المنهمر.. مطر يغسل النفوس.. والروح.. قبل أن يلامس الأرض.. أدار مذياع السيارة... قفز صوت المذيع ليصطدم بأذنه.. انفجار في بيروت.. قتلى في غزة... أغلقه بضيق... دفع بعنف شريطاً إلى المسجل.. انسابت موسيقى الجاز إلى روحه.. كان يبدأ يوماً جديداً..

الصمت ثقيلًا.. وضع المسدس على الطاولة.. دسّ النقود في جيبه.. شعر بأن قلبه توقف عن الدق.. نظر إلى صاحب العيون الميتة بسخرية.. واصطحب صديقه وخرج.. تعالت وتسارعت دقات قلبه كالطبول.. شعر أن قلبه سيمزق صدره ليخرج.. سرت برودة رهيبة في جسده وأحسّ بعرق غزير يغرقه.. مدّ يده ليمسحه.. لم يجد نقطة عرق واحدة.. ألقى بنفسه على مقعد السيارة..

خاطبه صديقه..

-لم أظن أنك بهذا الجنون.. كنت ستفقد حياتك..

لم يجب.. أشعل سيجارة.. لاحظ أن يده.. بدأت بالارتعاش.. ألقى بها من النافذة.. ظل السؤال يطارده لماذا فعلت هذا؟..

لكنه لم يجد إجابة قط..

-ماذا ستتناول على الغداء؟

-لم أقرر بعد!

-أستطيع أن أحضر إلى منزلك وأعد لك الطعام إذا شئت.

-ألجمته المفاجأة لم يجيبها..

-عاجلته مرة أخرى..

-إنني أعرف أنك تعيش وحدك.. ثم إنني لا أخاف منك..

-أجاب بسرعة..

-لكنني أخاف عليك مني..

-آخر اليوم طلب إجازة.. كان مرهقا.. سيأخذ الغد بالإضافة إلى العطلة الأسبوعية.. يحتاج إلى الهدوء..

-ذهب إلى منزله.. طلب الغداء.. أكل.. ألقى بنفسه على سريريه وغرق في سبات عميق..

-أسدل الليل ستاره.. أفاق من نومه على صوت جرس الباب.. تتأقل في القيام.. لكن الصوت ألح.. فتح الباب وجدها أمامه.. وقف مشدوها..

-هل سأظل واقفة بالباب؟

-لا لا تفضلي..

-سرعان ما وصل إلى مكتبه.. يشغل منصباً مهماً برغم صغره سنه..

-بادرته سكرتيرة الاستقبال بابتسامة ذات مغزى يعرفها.. كان يعرف أن غموضه يثير شهية النساء.. ربما عيونهم السوداء اللامعة الممزوجة بالذكاء والحزن.. ربما رائحة عطره الفرنسي لا يعرف.. في النهاية لقد اكتسب لقب زير نساء.. ومن يكتسب هذا اللقب يثر شهيتهم أكثر..

-انهمك في العمل بكل طاقته.. بعد فترة احتاج توقيع مدير الشركة.. لم يطرق الباب كعادته.. كانت سكرتيرة المدير الحسنة تقوم بواجبها اليومي في مداعبة المدير.. أصلحت ملابسها وخرجت بسرعة.. لم يعر الأمر أي اهتمام..

-رنّ تليفون مكتبه جاء صوتها مرتجفا:

-أرجوك لا تفهم ما شاهدته خطأ..

-لم أشاهد أي شيء!

-انهمك مجدداً في العمل.. انتصف النهار.. يقتات على القهوة والتبغ.. أمام صالة الاجتماع وقف يعابث زميلا له.. جاءت زميلة له وقورة.. ليست باهرة الجمال.. أخذت تتحدث معه..

-لماذا تبدو مرهقا هكذا؟

-العمل مرهق ولم أتناول شيئاً منذ الصباح..

شعر بالضيق..

-حسنا.

-ألسنا أصدقاء؟

غمغم:

-نعم.. هيا بنا..

غرفته.. الفوضى المنظمة.. مكتبة مليئة بالكتب.. هاي فاي..
أسطوانات.. سرير.. كنبه.. سجادة شرقية.. لون دافئ على
الجدران.. حامل الرسم وأنابيب الألوان المتناثرة على الأرض..
على الحائط معلقة لوحة لحسان جامح.. لا يتذكر متى رسمها..
في آخر الحجرة طاولة مستديرة صغيرة موضوعة عليها
زجاجات الخمر من كل الأنواع.. الإضاءة كلها جانبية.. يكره
الضوء المباشر..

-لم أتخيل كل هذا.

أشعل لفافة تبغ ليقضي على توتره..

-هل ترسمني؟

-لست جيدًا في رسم الوجوه..

سارع ليصب من إحدى الزجاجات كأسًا ليستعيد هدوءه..

-هل تريدني؟

-كنت نائمًا؟

-نعم.

لم يفتح أحد حياته من قبل هكذا..

-اذهب لتأخذ حمامك وأنا سأحضّر العشاء.

ذهب ويتوالى في ذهنه ألف سؤال وسؤال.. استسلم.. عندما
خرج.. كانت حضرت العشاء..

-منزلك جميل.. ذو ذوق رائع..

-شكرًا!

-لماذا تعيش وحدك؟

-أمي غالبًا تقضي الشتاء عند شقيقتي في فرنسا..

تناولا العشاء على مهل.. في صمت.. تدور بداخله نفس
الأسئلة.. لم يسمح لها باقتحام عالمه بهذا الشكل؟.. تتصرف
كأنها سيدة المنزل..

بعد أن انتهيا..

-ماذا تريدني؟

-أريد أن أشاهد غرفتك!

-لم لا؟.. لكن شيئاً خفيفاً..

سلمها كأسها.. أدار الموسيقى.. صدحت الأنغام وصوت
أرمسترونج ملأ المكان..

اصطدمت به.. احتضنته.. قبلته.. قبل أن يفيق.. كان يتقلب
معه على فراش المتعة.. بعد أن هدأت عاصفة الجسد وخفت
الأنفاس الملتهبة.. ألقت برأسها على صدره وأخذت تعبت
بسلسلته الذهبية..

-لماذا جئت؟

-كنت أريد أن أدخل عالمك... ألمسه... أتذوقه...

-هل سترسمني؟

-لا أعرف.

في اليوم الثالث من اقتحامها عالمه.. قبلته مودعة.. كانت
تحمل معها لوحاتها.. المرسومة فيها عارية..

لا يعرف لم تذكر كل هذا الآن.. ربما لأنه رآها بعد سنوات
مع زوجها في الشارع.. ربما يكون هذا هو السبب..

كلب السيد

وضعه في غرفة مظلمة حالكة السواد عندما كان جرواً
صغيراً وانهلوا عليه بالضرب بكل وحشية.. لم يستطع أن يقاوم
الضربات القاسية بأسنانه الصغيرة.. لكنه كرههم.. كره كل
شيء.. حتى رائحتهم مقتها.. تمنى أن يمزقهم بأنياه.. غادرت
البراءة قلب الجرو إلى الأبد.. حتى حضر هو.. السيد المطاع
في القصر.. ربّت عليه وأطعمه من يديه.. أخيراً استجابت
السماء لصوت صراخ عوائه المؤلم.. درّبه.. كان يأكل
بشراهة.. بعد شهور تضخّم جسده.. وبرع في التدريب حتى
أصبح كلب سيد القصر المفضل.. استطالت أنيابه المخيفة
وتضخّم جسده وأصبح يرتعد من يسمع صوت نباحه يصدح في
جنابات القصر.. طوّق سيده عنقه بسلسلة ذهبية.. يرقد دوماً
تحت قدميه.. يحضرون له أفخر أنواع اللحم في الطبق الذهبي
المكتوب عليه اسمه.. الكل يهابه.. عندما غضب سيده على أحد
الخدم في القصر أمره أن يمزقه.. هجم عليه بكل قوته وأنشب
أنياه في جسده النحيل ورجّت صرخات الرجل في القصر.. لم
ينس رائحة من ضربوه صغيراً..

في تناول البقايا.. سمع صوت زمجرة خلفه.. قطيع من كلاب الشوارع خلفه.. ينظرون له شذراً.. تعالى صوت الزمجرة.. واشتبك الجميع في صراع دموي من أجل بقايا كوم العفن.. لم يصمد طويلاً.. تكاثروا عليه.. أنخنوه جراحاً.. انسحب ليلعق جراحه في انكسار.. افتقد سيده وقطعة اللحم وطبقه الذهبي..

كره قانون الشارع.. وقسوة كلاب الشارع.. لم يكن يعلم أنهم أيضاً يكرهونه..

ارتفعت الصرخات وعلت صوت ضحكات السيد القابع على مقعده الوثير متوسطا القاعة الرخامية.. أمره بالتوقف فجأة.. توقف.. ترك الرجل النازف على الأرض وركض ليتناول قطعة اللحم الفاخرة من يده.. ربّت عليه مستحسناً.. مزق الكثيرون بعدها..

عندما كان السيد يغيب عن القصر.. كان يتركه ليحمي قاعته الرخامية آخر بهو الأعمدة.. لا يسمح لأحد بالدخول.. حتى لزوجته.. أو أولاده.. كان يكره الجميع ويكرهه الجميع.. يجيء من رحلة صيده ويقذف إليه بأكبر قطعة من الفريسة.. جلس على مقعده الوثير يعبّ الشراب حتى ثمل كعادته.. في الصباح تعالت أصوات الصراخ والنحيب.. لقد مات السيد وتركه وحيداً.. انشغل عنه الجميع..

جلس حزينا يفكر في اللحم الغائب.. في صباح اليوم التالي.. تحلق حوله كل من في القصر.. جذبه أحدهم من طوقه بواسطة عصا طويلة شلت حركته.. لم يتمكن من تمزيق أحد ذلك اليوم.. عند بوابة القصر.. لا يتذكر سوى ألم الركلة التي أطاحت به إلى وسط الطريق.. انطلق يجري مذعوراً لا يلوي على شيء.. أصبح ألم الجوع قاسياً..

عند كومة القمامة في الطرف السفلي للمدينة.. نقب عن الطعام منعته الروائح الكريهة من أكل أي شيء.. انصرف حزينا.. قبع على الأرض الترايبية في سكون.. منتظراً.. مزقت سكاكين الجوع أحشاءه.. توجه إلى كومة العفن مرة أخرى.. بدأ

لفظه السرداب.. وجد نفسه في أحد الشوارع الفسيحة.. في إحدى المدن الغربية.. يسير متسائلاً عن ما حدث.. اصطدم بثلاثة أشخاص.. لا يعرفهم بالطبع.. لكنهم عرفوه.. ومعهم أخذوه.. ورحبوا به على سطح سفينتهم..

بعد لحظات كانت صورته تتوسطهم على غلاف كتاب في مجتمع يحاكم الضحية ويكافئ الجالاد فكل شيء مسموح..

حلم

يقول فرويد إن الأحلام هي المعبرة عن مكنونات الإنسان.. ويقول الشيوخ إن الرؤيا من الله والحلم من الشيطان.. ليس بهذه الدرجة من الصلاح حتى تأتيه رؤيا من الله.. وليس بهذه الدرجة من الفساد حتى يأتيه حلم من الشيطان..

في يوم من الأيام في إحدى مدن الشمال.. طرق نومه حلم.. إن شئت غريب أو حتى عجيب..

رأى نفسه بداخل سرداب.. قد يكون سرداب إحدى المقابر الفرعونية القديمة.. لكنها لا تحتوي على أية نقوش.. منهك القوى.. يجاهد محاولاً النهوض.. سعل.. فمه مليء بالرمال.. عندما كان يتقيأ الرمال من فمه.. شاهد أربعة رجال بدون وجوه قادمين نحوه.. يحملون محفة.. مثبت عليها عرش ذو فرش أحمر قاني اللون.. يجلس عليه طفل.. نظر إلى وجه الطفل وجده.. أبله.. يضحك ضحكته الخافتة البلهاء..

دلفوا جميعاً إلى غرفة بدون باب.. كانت عن يساره.. ربما تكون غرفة الدفن الملكية..

-هل لديك خبرة سابقة؟

-لقد عملت في مجال السياحة.. قالت متلثمة..

-لا يهم إن عملك سيكون بسيطاً ستعملين في الاستقبال
تردين على الهاتف وتستقبلين البريد وسيعاونك آخرون..

صافحته و غادرت.. كانت أول مرة تفرح منذ سنوات..
مجرد كارت شخصي

قد غير حياتها وعرفت الآن قيمة تمرّد صدرها وساقها..
اشتريت فستاناً جديداً.. ودخلت العالم الجديد..

ظلت ترقب هذا العالم بعيون قلقة يعلوها الفرح.. جلست
وراء مكتب الاستقبال وضعت ساقاً على ساق.. لمحها المدير
الجديد للشركة.. هو أيضاً هبط إلى هذا العالم بالنقّة وليس
بالخبرة.. فما يسري في الوطن على العام يسري على الخاص..
جاء من العدم.. قصير.. ممثلىء.. على وجهه أثر معركة قديمة
مع الجديري.. لم يمنحه الله عنقا تصل بين رأسه وكتفيه..
أعجبته ساقاها.. في اليوم التالي افتعل مشاجرة مع سكرتيرة
مكتبه الوقورة.. وأصدر قراراً بنقلها إلى مدينة أخرى.. هذا ما
يحدث في العادة للوقورات..

بعدها بأيام نقلت لتعمل كسكرتيرة له بجوار مساعده الذي
أتى به معه..

كانت سعيدة إلى أقصى درجة.. لم يكن مديرها يعرف شيئاً

خيوط العنكبوت

لم تعيش حياة مستقرة.. أب سكير لا يكف عن إثارة
الفضائح.. وأخ شرد في دروب الحياة ولم يعد.. أخت تزوّجت
ممن تحب وعاشت حياة بسيطة بعيداً عن الجحيم.. عصفت
رياح الموت بالأم وأصبحت وحيدة.. إلا من حبيبها أو من ظنّته
كذلك.. ضاق بالوطن الذي ذبح أحلامه وضاق الوطن به..
سحت له فرصة للسفر إلى الخارج.. ذهبت إليه باكية.. جاثية..
ترجوه أن يبقى.. افترسها.. وتركها تتزف أنوثتها المهذرة
وحدها وسافر.. لملمت أشلاءها الممزقة.. منهارة.. لم تعرف
كيف وصلت إلى منزل أختها البعيد.. احتضنوها بينهم.. لكن
جرحها لم يندمل.. برغم الشهادة الجامعية لم تحصل إلا على
وظيفة مضيعة في مطعم.. أي شيء لتساهم في نفقات سير قطار
الأسرة المترنح.. بعد سنوات لمحها أحد الزبائن الدائمين كان
صدرها المتمرد وساقاها قد كفلا لها كارتاً شخصياً من هذا
المتصابي.. موجهاً لإحدى الشركات الكبرى.. فوجئت أنهم
يحددون معها موعداً للمقابلة الشخصية فور اتصالها.. لم يكن
لديها ما ترتديه إلا زي المطعم.. ذهبت في اليوم التالي لتقابل
المدير الإداري للشركة..

كان يتعمّد أن يعبث بجسدها في مكتبه.. تصرخ فيه.. لا يتغيّر.. لم تفهم لماذا يصرّ على ذلك..

بعد فترة.. جاء لزوجها السري عمل آخر بمميزات أفضل.. صرخت به:

-وأنا؟

-لا شيء.. ستبقين كما أنت..

-وزواجنا؟..

-عن أي زواج تتحدثين؟ لقد انتهى كل شيء..

تركها وغادر..

شغل المنصب رجل آخر اشتهاها منذ أول يوم.. لكن هذه المرة حصلت على ترقية وسيارة وأما نسخنا عقد الزواج فقد بقيتا معه..

عن العمل ولا مساعده هكذا تسير الأمور.. كانا دائماً يرسلانها إلى شخص آخر دائماً.. كانت العيون تلتهمها في الطريق.. وبمجرد ابتسامة تعقبها انحناءة تظهر وادي الصدر كان كل شيء يتم على أكمل وجه..

بعد وقت ليس بكثير تحرّش بها مديرتها عدة مرات.. صدته.. يريدّها مع المنصب.. المثلث الذهبي للعمل منصب.. زوجة وعشيقة..

حسم مديرتها أمره سريعاً..

-نتزوج..

-كيف؟ أنت متزوج..

-لن يعرف أحد.. نتزوّج عرفياً أو نتركين العمل.. لا خيار آخر..

أتى مساعده بالورقة وانتهى الأمر..

أصبحت ملكه.. أول يوم جمعها معه.. شعرت بأنفاسه تحرق جلدها.. تذكرت يوم ذبحت أول مرة.. كانت لا تطيقه لكن على أية حال لا يستغرق أمره دقائق لا تتذكر أبداً أنها أنت أو تأوهت معه.. بعد كل مرة تبكي للصباح.. تنهار أكثر.. تذوي.. لا أحد يسمعها..

لم يشعر أحد..

تجمّع من البقايا البشرية لا يخلف وراءه بعد أن يرحل سوى
تلال من القمامة ورائحة عطنة تستمرّ طويلاً.. لكنه الصخب
الوحيد الذي يتصاعد كل عام في هذا الوقت كبصقة في وجه
تلك البيوت النحيلة هنا..

الغجرية

هناك خارج حدود دائرة البيوت المتلاصقة المنحنية على
بعضها.. ساحة غير محددة الملامح.. تقبع بها المحاريث القديمة
والبقايا البالية.. وفي كثير من الأحيان الحيوانات الميتة التي لم
تجد طريقها إلى قنوات الماء كغيرها..

إنه ذلك الوقت في بداية شهر الربيع.. حيث تزدهر الأشياء
لتعود فنتيبس لاحقاً في الصيف... لتموت من برد الشتاء وتدفن
في وحله الزلق..

سرى دبیب في الأنحاء.. وكست الجو غلالة من الغبار جاء
متراقصاً مع الهوام..

وكنّت أنا أنظر بعيون هجرتها الدهشة منذ زمن.. فكل الأيام
متشابهة هنا وطعمها يحمل نفس الملوحة.. أوغلت ببصري
طويلاً وأيقنت أنه ذلك اليوم حيث يأتي الناس بعد أن تتقيأهم
العديد من النواحي وتقذف بهم هنا..

تقاطر الناس كالنمل.. لم لا؟ إنه يوم المولد لذلك الولي الذي
يقع في دعة منذ زمن بين القريتين وتعلو ضريحه قبة خضراء
كالحة اللون.. يصرّ الناس على إقلاقه عدة أيام كل عام.. ويعلو
صخبهم وضجيجهم حوله.. كأنهم شياطين هربت من الجحيم
خصيصاً له..

خرجت من تلك المدقات الثعبانية أنفث دخان سيجارتي في
وجه الشمس التي خرجت يومئذ ترقب ما يحدث بفضول..

كنّت أسير تراودني الذكريات الميتة والكلمات البالية واندفعت
مئات الأشياء القديمة بداخلي تعوي بصفاقة..

قادتني أقدامي إلى هناك حيث اجتمع هذا الخليط المتتافر..
خيام بدأت في التناثر وصخب الأطفال كان مروّعاً.. وبين هذا
وذاك كان الغجر.. يثيرون أكبر قدر من الجلبة والصياح..

اخترقت الساحة بلا هدف قتلاً للوقت.. وهناك كانت تتفافز
برشاقة تلك الغجرية.. ربما لو رآها ذلك الولي الذي يرقد في
دعته الأبدية لغادرها ونفض عنه أودية الموت وارتضى على
صدرها العامر ليرتشف رحيقه..

الموسيقى وأصوات الإنشاد..

شيء ما اجتذبنى.. هناك تحلق الرجال في دوائر وعلى دقّ الدفوف انهمكوا في الذكر حتى هذا الرجل فارح الطول.. كان يتمايل يمنة ويسرة على الدقات بعنف.. وكأن الخبل أصاب الجمع كله..

كنت أيضاً أتمايل ربما من دوار الثمالة.. هناك بعيداً عن الصخب في أقصى الساحة كومة من السواد قابعة لم أستطع أن أتبيّن كنهها حتى اقتربت.. ربما وقوف تلك الغجرية البرية التي رأيته ذلك الصباح بمقربة منها أغراني بالاقتراب..

عرفة ككل عرفاتهم.. تجاوزها الزمن أو بالأحرى نسيها.. مثل شجرة عجوز على جوانب الطريق.. ألقيت لها ببعض النقود.. وأسرت لي بما يخبؤه لي الغد.. لم أكن مهتماً بما تقول قدر اهتمامي بتلك الغجرية الشابة الذي تعلق نظري بها طول الوقت..

أصابني الملل وودّعت الساحة بصخبها.. وسرت مرة أخرى إلى تلك البيوت الفاعرة أفواها ببلاهة في انتظار العائدين إليها..

أشعلت سيجارة لتؤنس وحدتي في الطريق أو لعلها تخفف أثر ذلك الدوار اللعين.. لا أعرف لماذا راودني شعور بأن هناك أحد يتبعني.. لدرجة أنني شعرت بلفحات أنفاسه فأصابتي القشعريرة.. تلفت كثيراً.. لم أجد شيئاً.. أيقنت أن ذلك بالتأكيد

طالت نظرتي إليها وجالت عيوني على هذا الجسد الغضّ صعوداً ونزولاً وبدأت أنها لا تبالي..

ابتعدت وغابت عني.. وابتلعتني الزحام وخنقتني رائحة الزيت المتصاعدة من قلبي الطعام.. أصبح الجو ينزّ لزوجة لا تطاق..

أصبحت الساحة كإسفنجة تمتصّ الناس من كل صوب.. حتى ذلك الوغد القادم من قرينتنا.. بقامته القصيرة ولونه الأبيض المشربب بالحمرة.. يتقدمه بطنه المنتفخ الذي كاد أن يسقط منه ويلامس الأرض.. ويحتل المساحة الضيقة بين شفثيه وأنفه الدقيق.. خيط أسود رقيق يبدو لي أنه شارب..

لم تعد لي رغبة في التصالح مع تلك الكائنات.. ربما سأتصالح معهم بعد أن أركلهم من هنا حتى ألقى بهم خلف أبواب الجحيم..

ندت صرخة جاءت لتقطع كل ذلك.. كان ذلك الوغد يصرخ وتخرج منه الكلمات مبتورة وعصيّة على الفهم... تبين بعد ذلك أنه التصق بجسد تلك الغجرية فخمشت وجهه بشراسة قطرة برية.. استجمع الرجل قواه.. وانطلقت منه كل بذاءات السباب.. على مرمى البصر وقفت هي ملوحة بسكين صدى مهدة.. كفاني ما رأيته ففقلت عائداً..

انحسرت الشمس وهبطت رياح الليل.. ومن السطح كنت أستطيع رؤية أنوار الساحة تأتي مغبشة مصحوبة بصخب

أثر الخمر والدخان..

دلفت إلى داخل الدار.. وبدأت في خلع ملابسها ببطء.. لم يعكر صفوي سوى نقرات خفيفة متقطعة.. ما لبثت أن أصبحت واضحة..

النداهة

ظلت حكايات النداهة تنتشر حولي منذ أمد بعيد.. تتردد بين العجائز بروايات متعددة.. لا تسألني عن حقيقتها.. فأنت لا تعرف قرينتنا.. هنا لا توجد حقائق.. هي مجرد أكاذيب مغلفة بخيالات الوهم.. أو هكذا أظن..

قالوا إنها تسكن في قناة الماء أعلى القرية.. وتسود في الليالي المعتمة وترسل شباك غوايتها في الليالي المقمرة ليسقط في شباكها الرجال.. تمتص رحيق حياتهم حتى تنتشي وتسحبهم إلى أسفل ليصبحوا عبيدها إلى الأبد..

قيل إن عملاق القرية كان يسبح كعادته في ليلة أطل فيها البدر في إحدى ليالي الصيف البعيدة فأعجبت بعنفوانه وأغوته.. طارحها الغرام وعندما اقترب الفجر جاهدت لتسحبه معها لكنه بشكل ما لاذ بالفرار.. وأصابته لعنة الخبل.. لكنه لم يستطع الابتعاد.. قيل إنه أصبح أسيرها وقيل تزوجها.. وأعطته هي بدورها قوة عشرة رجال لكنها حرمت عليه الزواج..

هنا لا شيء يقتل الوقت سوى الثرثرة وحكايات العجائز..

وتقاطر أوغاد القرية وبلهاء القرية على العطار في أدنى القرية الذي زاد ثراؤه بشكل واضح..

يافعاً يملؤني الحماس والنزق متجاهلاً كل شيء.. تسللت إلى تلك البقعة في إحدى الليالي المقمرة.. كان القمر يلقي بغلالته الفضية على كل شيء..

مهمات الشبق المتصاعدة أغوتني بالاقتراب.. أرحت الحشائش الطويلة بهدوء.. هالني ما رأيت.. ذلك العملاق وقد رجع شاباً يحتضن تلك النداهة شفافة القوام والتي انسدل شعرها حتى سبحت خصلاته وتراقصت على صفحة المياه..

مشدوهاً وقفت.. لا أعرف كم من الوقت أمضيت.. لكن أعتقد أنه كان وقتاً قصيراً مرّ كدهر..

لم أشعر سوى عندما نظرت لي تلك الشفافة.. تجمّدت الدماء في جسدي.. أطلقت ساقّي للريح يملؤني الرعب.. ظلمت أتعثر طول الطريق وتسابقني دقات قلبي الذي كاد أن ينفذ من صدري..

دلفت إلى داخل الدار ومنها إلى غرفتي أوصدت الأبواب وأحكمت إغلاق النوافذ.. انزويت في أحد الأركان طول الليل ولم يغالبني النعاس سوى مع نور الصباح واجتياح التعب..

لم أبح لأحد بما حدث ففي كل الأحوال لن يصدقني أحد برغم أنهم يلوكون تلك الحكاية بشكل دوريّ إن لم يكن يومياً..

حذرتني أمي مراراً أن أذهب إلى هناك بعد انتصاف الليل أو في الليالي المقمرة.. لكنني كنت كقط يخدش لوح الحياة بمخالبه الغضة.. فلم أبال كثيراً وإن ظل الأمر يداعب مخيلتي باستمرار..

في ليلة ما تحلق أبي مع أصدقائه يتسامرون في حقنا.. تعالت ضحكاتهم وبدأت الثرثرة من جديد والحكاية المعادة التي سئمت من سماعها.. ورويت هذه الحكاية مرة أخرى.. عن حظ هذا العملاق الذي منح قوة عشرة رجال وأصبح عاشقاً لتلك الجنية.. وبفضل ما حدث وتدخل الشيخ الراحل.. توقفت النداهة عن ندائها المميت لرجال القرية..

سألت يومها: لا بد أن هذه الجنية ملعونة حتى يتم إلقاؤها ههنا في قناة ماء تستقبل كل القاذورات والحيوانات التي جيفت حتى من كانت تصطادهم امتصت رحيق حياتهم البائسة.. نظروا لي مشدوهين وقد فغروا أفواههم في بلاهة.. لم أحصل يومها على إجابة.. لكنني حصلت على لكزة قوية من أبي أوجعتني.. فررت داخل نفسي ومن يومها ابتلعت كل أسئلتي..

لم تفقد تلك الرواية رونقها بمرور الأعوام بل اشتدّ عودها وأصبحت أكثر رسوخاً من ذي قبل.. على أية حال فقد ظللن نسوة القرية يتهايمن بأن العملاق الذي خبل عشقا لديه قوة عشرة رجال ثم يتضاحكن في خبث واضح.. بالطبع فإنه كان يدخل كل البيوت وربما لم تكن النداهة فقط التي تجيد فن الغواية في قريتنا..

لكن في النهاية لم أستطع أن أتخلص من أثر النداهة فقد
حولت العملاق لمخبول وأصبحت أنا صامتاً أو ربما لا منتمياً..

قبل الفجر

قبل قليل من انبلاج الفجر.. أيقظه الأرق.. تناول ساعته
كانت تقترب من الساعة الرابعة.. شك في أن عطباً ما أصابها..
لأنه لم يسمع صوت الأذان يصدح بصوت الشاب الجنوبي
كالعادة.. ألقى برأسه مرة أخرى.. لكنه هذه المرة استيقظ على
صوت جلبة وصياح ترافق مع بعض العويل والنحيب المتقطع
والمتصاعد..

هرول إلى الخارج ليرى بعض الأهالي تسرع في اتجاه القناة
الرئيسية للماء التي تخترق أعلى القرية.. هناك تعلق الناس
كالطيور الناهشة حول شيء ما..

مدّ عنقه ليرى.. صدمته الدهشة.. كان جسد شيخ الجامع
راسياً على ضفاف الطريق بجوار القناة.. تأمله في حزن
وحسرة.. الجسد النحيل مسجى على الأرض في وداعة وعيناه
ترنوان نحو السماء.. وارتسمت على وجهه ابتسامة مبهمـة..
فسرها البعض بأنها ابتسامة رضا وفسرتها أنا بأنها ابتسامة

سخرية مريرة كأنه يقول لكل الأوغاد سحقا لكم.. وكانت لدي أسبابي لذلك..

على عجل تم نقل الجثمان إلى داره.. ضغطت الأسئلة المتتالية على جوانب رأسي.. ماذا أتى به إلى هذا المكان وفي هذا الوقت؟.. ليس هذا طريقه المعتاد من داره شرق القرية إلى الجامع وسطها؟ انفلتت أسئلتي من عقالها.. لكننا في قرية تنتحر أسئلتها وأرضها الجذباء لا تثبت أي إجابات..

أتذكر الشيخ العجوز منذ نعومة أظفاري.. جسده النحيل وصوته الهادئ وكلامه الموجه القاسي لأوغاد القرية.. كان الجميع يهابه.. فلم يكن ذلك الرجل يسكت عن الحق ووفرت له قطعة أرض صغيرة استقلالية عن كبار أوغاد قريتنا..

رحلته اليومية المتكررة تبدأ قبل صلاة الفجر من الدار إلى الجامع غالبًا يكون هناك هذا الفتى الجنوبي يصدح بالأذان بصوت أقرب إلى صوت ندى الصباح.. هذا الفتى الذي هبط إلى قريتنا في يوم ما ولم يغادر.. يلحق بهم بعد ذلك عملاق القرية أو مخبول القرية حسب من يتكلم.. هو بالفعل فارع الطول.. يخشاه الجميع يحمل في يده عصاة غليظة تجعل أي احتكاك به مغامرة غير محسوبة أو مضمونة العواقب.. لكن هذه قصة أخرى..

بعد ختام الصلاة والأوراد.. يتوجّه الشيخ إلى أرضه ليشرف على ما يحدث هناك من حرث وري وبذر وخلافه..

أنا أشك أنه لم يقض بشكل طبيعي وانما أحد ما أسكت نبض حياته غدرًا.. لماذا؟

لا أعرف فقد ذكرت لك أن الأرض الجذباء لا تثبت إجابات وهنا تنتحر كل الأسئلة.. ربما كانت لي بعض التخمينات.. ضاق به كبار أوغاد القرية كثيرًا.. لقد كان يثخن لهم في القول وأحيانًا أخرى يكيل لهم ما يشاء من أقذع الكلام.. لم يستطيعوا أن يستميلوه إلى جانبهم.. جربوا كل شيء.. لكنهم لم يفلحوا..

أتذكره في يوم ما بعد انتهاء الصلاة كان يقوم بإلقاء الطعام للكلاب السارحة دومًا على أطراف القرية.. ليسأله أحد الكبراء: كيف تطعم هذه المخلوقات النجسة؟ ليرد عليه بغلظة: هذه المخلوقات النجسة أظهر منكم..

غرق الرجل في حرجه وأسرع الخطى مبتعدًا كاظمًا غيظه في طيات نفسه مشيعًا بضحكات السابلة..

كان يروق لي ما يحدث منه دومًا كان ينتقم للصامتين والعبيد.. ومن قطع لسانهم العوز والحاجة..

على أية حال رحل الرجل لكن تعالت همهمات أنه كان عند قناة الماء ليحذر النداهة من مغبة اختطاف شباب القرية وعادوا ليقصّوا أن عملاق القرية أو مخبولها أصابه مسّ منها عندما كان يستحم هناك في أحد ليالي الصيف البعيدة ومن يومها أصبح

صرختُ فيهم أرملته أنها لن تواريه التراب أبداً وسط قرية
تفوح منها رائحة العفن.. كلماتها الحادة انغرست كأنصال
وأثارت الكبراء ودفعتهم للصياح.. لكنها أدمت قلبي..

انشقت الأرض عن عملاق القرية الذي أخذ يدق بعصاه
الأرض بقسوة مهدداً كل الأوغاد... استمرّ الصعاليك المرتمون
على الأرض في مسرحيتهم.. لينالوا ضربات متتالية من عصا
العملاق وأصبحت الأمور تنذر بالأسوأ.. فرّ الصعلوكان ليلعقا
جراحهما بعيداً وإن لم يتوقفا عن السباب..

ساد الصمت.. وتحركت السيارة مبتعدة.. لم أتمالك نفسي
وطفرت دموعي مرة أخرى.. ولوّحت له مودّعاً..

هكذا.. همّت أن تتطلق ضحكة ساخرة مني لكنني قتلتها قبل أن
تصل إلى شفّتي.. كانت تناسب هؤلاء الأوغاد لكنها قطعاً لم
تكن مناسبة للشيخ الجليل..

هنا تزرع بذور الأكاذيب لتطرح ثمار الخرافة ليتناولها
الجميع بعد ذلك بدون استثناء..

تم تجهيز الجثمان حتى إذا انتصف النهار صلينا عليه..
طفرت دموعي عليه.. كنت أعرف أنني سأفقدته كثيراً..

ما حدث بعد ذلك أربك الجميع.. شقت سيارة طريقها إلى
داخل القرية واتخذت موضعها بجانب الجامع.. هذا اليوم سيكون
حافلاً.. حدثت نفسي..

ظهرت أرملته يحوطها أطفالها لتعلن أنها ستنتقل الشيخ لدفنه
في مسقط رأسه ستغادر هي وأولادها هذه القرية متحجرة
القلب.. تعالت الأصوات وتداخلت تعلن رفضها لذلك.. حتى إن
بعض صعاليك القرية ارتموا أمام السيارة وتعالى نشيبيهم.. إن
هذا الشيخ المبروك لن يدفن سوى هنا وصاح أحد كبراء
الأوغاد نعم سيدفن هنا وسنشيد له مقاماً ليأتيه الناس لتتبرك
بتقواه..

يا إلهي لم يكتفِ الأوغاد بإنهاء حياته.. الآن يريدون
الاستيلاء عليه ميتاً ليحصلوا على الأموال..

.....في مكان مغلق شديد البرودة...ضايقته تلك البطاقة المعلقة
في إصبع قدمه وكتب عليها مجهول

في اليوم التالي

باع الصيني عشرة ألعاب زاهية الألوان في أكياس خضراء..
ومرقت سيارة سوداء مسرعة مقتحمة الميدان .. وكان هناك
ممدداً وبصره شاخصاً يرنو إلي السماء ..

وصلت سيارة الإسعاف متأخرة برغم ساعة السائق الجديدة..

وفي المبني العجوز الكالح لونه، وقع وكيل النيابة ذو ربطة
العنق الفاخرة وهو يحتسي قهوة الصباح ثلاثة أوراق ذيلها بكلمة
يحفظ ..

في المكان الضيق شديد البرودة إلتصقت بإصبعه بطاقة كتب
عليها مجهول.

وفي إحدى الأزقة الخلفية كان يلعب طفل فرح بلعبته الزاهية
الألوانوفي الزقاق الذي يليه كان آخر يبيكي علي لعبته
المنتظرة وبين هذا وذاك كانت هناك دمعة انحدرت من وجه
مكدود مخلفة بقعة من البلل علي الملابس السوداء

كنت أعرف إنه مات لكن لا أعرف كيف ؟

لا أعرف كيف ؟

ممدداً...ونظره شاخصاً يرنو إلي الفراغ المتراكم فوقه في
صمتتراخت يده الباردة بجانبه بلا هدف

كنت أشك إنه مات لكن لا أعرف كيف ؟

- بذل جهداً كبيراً حتي إستطاع التملص من رئيسه في العمل
.. وأخيراً نجح ...أخذ يتقافز علي سلاالم المصلحة حتي خرج
.. عرج بعدها علي شارع جانبي و اشترى من أحد الصينيين
الجائلين لعبة زاهية الألوان لابنه الصغير وضعت في كيس
أخضر اللون .. نظر إلي ساعته وتذكر أخيه الذي أعطاه إياها
منذ سنوات عندما عاد إلي الوطن في اجازة.. انطلق نحو
الميدان ليلحق له مكاناً في أحد الميكروباصات المغادرة ..
اقتحمت سيارة سوداء الميدان وطار في الهواء من أثر الصدمة
.. إرتطم بالأرض مبتلعاً صرخة الألم، ممدداً ونظره شاخصاً
يرنو إلي السماء فوقه في صمت .. شاهد وجوه عديدة وغريبة
.. ضايقته أوراق الجرائد التي افترشت وجهه .. والتصقت
بعينيه صورة الزعيمبعد فترة ليست بقليلة واجد نفسه
محمولاًواياد تعبث بجيبهوأخري تجرده من ساعته

وجئت إنت .. يمزقك البحر شطرين ورحلة بحثك فيما وراء الأفق...وتاج ابيك المفقود ..

- كنت علي هذا الطريق منتظراً ولم يمنع زجاج السيارة العيون الفضولية علي يساري إن تلتصق بجلد وجهي بوقاحة غير مبالية بشيء ..وتلك الأبراج الفارحة ذات العيون الزجاجية الداكنة تحق في البحر بلا نهاية ..

وعلي الجانب الأيمن نخلة انتزعت من ارضها لتوضع هنا لتزين الطريق لكنها يبدو انتابها الحزن وتوقفت عن الحياة إحتجاجاً ..عجفت أوراقها وأصبحت مثل صبارة تشرع أشواكها لتخر كل من يقترب ..

- ادت وجهي والتقطت الجريدة اليومية لأبتعد ..جاءت العناوين تحمل أنباء غارات الجنوب ورافق بها صور القتلي تصرخ بفجعة الموت ..تذكرت أحاديثي المتكررة مع مجدي عبد الهادي عن ستالين ..دائماً يذكرني بأنه لم يكن سفاحاً أو قاتلاً ...

أرد :

- لكن يا صديقي هو القاتل بأن موت إنسان مأساة وموت مليون ليس إلا إحصائية ..

ستالين أيها اللعين كم قتلت ؟

لم يكن ككل يوم

كان يوماً ككل يوم ..لكنه لم يكن ككل يوم ..تجمعت السحب الداكنة في سماء مدينتي يومها .. بدأت زخات من المطر تتساقط .. كان الطريق متوقفاً ..هناك تجري علي قدم وساق أعمال توسعة طريق الكورنيش مجدداً ..المرور شبه متوقف ربما بسبب المطر وتلك الأعمال ..أو حادثة يومية كالمعتاد ..تعود الطريق إن يقتصر القرابين البشرية ثمناً ..هل يرضيك ذلك أيها الاسكندر ..لم تدفع تكاليف الإنفاق حتي يتوقف النزيف ..

لا تدعي انك لم تكن تعرف ما سيحدث لأبناء مدينتك ..مللت من تصاريح البناء ورشاوي المحافظة فتركهم فريسة ..يا من قدمت من وراء البحار لتلحق بأبيك امون هاهنا..هناك لم تكن تعرف ما حدث في تلك الليلة البعيدة ..لم يكتفي امون بنساء الشرق والجنوب وهاهو يشعر بأرق ..فيتجه شمالاً ..ليجد أوليمبيا في غلالاتها الشفافة وعطرها الفواح هناك ..بادلها العشق ..

- اجاب في دهشة

الراعي ؟ لا يوجد ايها الساذج راعي صالح ..هناك ذئب وراعي وبينهم حمل ليس إلا ..الذئب يأكل الحمل ..والراعي أيضاً يأكل الحمل ..هل رأيت إن الذئب والراعي مترادفان ..كلاهما يحمي عشاؤه أما الحمل فهو لا يهتم إلا الكلاً وثغاء أقرانه ...

- أرجو إن تكون قد فهمت الآن كل شيء ..ذكرت له دفاع مجدي عنه وإنه قال إن معظم ما يذكر عنه هو دعاية معادية وإنه لم يقتل سوي ستمائة وخمسين ألف فقط ...

عبث بشاربه وإبتسم ثم قال سأفكر جيداً إن أضمه للجنة المركزية للحزب قريباً ...سأغادر الآن فلم يعد لدي وقت ..ترجل وعبر الطريق ..وإستند علي جذع النخلة مطيلاً النظر للبحر ...

يومها قلت لمجدي إني التقيت ستالين وإنه يفكر في ضمه للحزب ..من المؤكد إنه ظن اني أهذي ..لكنني لم أكن كذلك ..أكدت عليه إن لا يصطحب حسام معه ..لا أحب إن أراه بين يدي بيريا ..وهو لن يتحمل العمل الشاق في الجولاج ..وبرد سيبيريا ...

لم أكن متأكداً إنه سيستمع لنصيحتي ...هرعت أجري كالممسوس لأتصل بحسام ..صرخت لا تذهب إلي هناك ..لكن لم احصل سوي علي رنين لا ينقطع ...

أطلت النظر أمامي ..تصطدم عيني بأرتال السيارات المتراكمة .. فتح الباب والقي بجسده الضخم بجانب فجأة ..

كان هو ببزته العسكرية الزيتونية اللون وصدره موشي بنياشينه الذهبية ..شاربه الغزير وشعره الكثيف الذي يظهر من الكاب...مصدوماً أنا ..

رمقني نظراته الحادة وبدأ في الحديث ..

- إنت دائماً تهاجمني وتطلق علي أسوأ النعوت والأوصاف و قد حضرت إليوم لأبين لك كم إنت مخطيء ..

- حاولت التحدث تلعثمت وخرجت كلماتي شائهة ..مبتورة وتساقطت من فمي ..

- أخرج علبة سجائره الفضية وأشعل سيجارة وإستأنف حديثه ..

- أنا لم أقتل كل هذه الإعداد ..هل أنا من قتلت كل هذه الملايين في ارجاء الأرض ..بالطبع لا ...ثم لماذا إنت مهتم ؟ هل كنت تعرف سيرجي وفلاديمير وكاترينا ..يا بني لو كنت تعرف اسمائهم فهذه مأساة لكنهم مجرد أعداد بالنسبة إليك وإلي غيرك ..مجرد إحصائية ليس إلا ..يلوكها الناس حتي إذا ملوا انتقلوا إلي حديث آخر ...

- لكنك كنت الرئيس ،الزعيم ،الأخ والراعي

